خليل رامز سركيس

زواجُ مَدني

بَعْلٌ و بَك

دار الجديد

خليل رامز سركيس

زواجٌ مَدني

بَعْل و بَك

دار الجديد

الطبعة الأولى، ١٩٩٩

ISBN: 2-910355-90-X

شركة دار الجديد ش. م. م. • صندوق بريد، ٥٢٣٢/١١ بيروت ـ لبنان • هاتف وفاكس، ٥٠ ٩٨ ٧٣ ـ ٧١ ٨١ ٧٣ (٠١) •

بريد إلكتروني، Aljadeed@cyberia.net.lb

إلى صديقي جوزف زعرور
(١٩٢٦ - ١٩٩٨)



خير النساء الموافقة لبعلها

عبد الله ابن المقفع



هيكلٌ في مخيِّلةِ بعلبك.

شخصيّتا الهيكل: بَعْلَ الإله،

بَكُّ المدينة زوجة بعل.



بعل

عشرون قرنًا ـ فضلًا عمّا قبْلها ـ نبتتْ شؤونُها في رأسي. لكنْ لم يزعم أحد أنّكِ عِلّةُ هذه القرون. امرأةُ قيصر أنتِ، قيصرِ الهيكل مِن كلِّ عهْد. كأنّ صاحِب الرؤيا إيّاكِ تخيَّلَ إذ تأمَّلَ فقال: «... وتلك المرأة هي المدينة الكبرى التي تَسُود ملوكَ الأرض.»

بك

ها القرن الحادي والعشرون يوشك أنْ ينبت. فاحفظْ رأسكَ... وإنْ لم تكن مسؤولًا عمّا وراء القرون التي تنبتُ فيه تباعًا وكأنّها أجيالُ قضايا غَرْسَ خيرٍ وغَرْسَ شرٍّ وبَيْنَ بَيْن.

بعل

اليومَ عيدُ ميلادكِ. فدَعي عنّا بلوى الرأس بالقرون. ولنفرحْ بالعيد مَولدَ سَعْد وسلام. لستُ أَذكر في أيَّة سنة وُلدتِ. كلُّ ما أَذكر، هنا، هو مَغْنَى هذا العيد. قلبُه. عقلُه. فحْوى ضميره. بابُه الضيِّق إلى مَدَى انفتاح. لسوف أحتفي بعيدكِ، شمعةً فشمعةً، ما حييتُ. أنتِ عيدي. حُبُّ حياتي. زوجتي المثاليّة الفضلى. لولا أنّك شريكةُ العمر ـ والمَصِير ـ، لكنتِ لي خيْرَ صديقة. إذا قلتِ نعم أو قلتِ لا، فإنّ كلَّ شيء مِنّي يقول لكِ نعم أو يقول لا. وإذا قلتُ نعم أو قلتُ لا، فإنَّ كلَّ شيء منكِ يقول لي نعم أو يقول لا. أنتِ وأنا أو أنا وأنتِ محاوَرةُ

سؤال في محاوَلاتِ جواب. هكذا الحُبّ، وإلّا فلا. لكنْ ربّما وقَعْنا، بعضَ أحيانِ الحُبّ، على حالات لا أَثر له فيها لولا الذي يكابد مِن بعضِ أحيانِ الحقد.

بك

الحقدُ يُرهِق. الحقدُ يميت.

بعل

ما لنا وله؟ عهدُنا، في عيدكِ، سِرُّه الحُبّ. أتمنّى لكِ، في يومِ العيد، أنْ تربحي ما يجب أنْ تربحي، وأنْ تخسري ما يجب أنْ تخسري.

بك

الربح والخسران معاً؟

بعل

كفّتا الميزان، أَعدَلِ المعطيات. أنا الرابح إذا أنتِ ربحتِ؛ وإذا أنتِ خسرتِ فالخاسرُ أنا.

بك

ما هذا ربحٌ ولا خسران؛ بل موسيقى، موسيقى هيام.

بعل

ليتني أَقدر أنْ أُشِيع في كلماتي ما في الموسيقى مِن كلمات.

بك

حسْبي أنّكَ زوجي وحُبّي إذ أنتَ ربّي وإلهي.

بعل

بَكّ. هنيئًا لكِ دهرُكِ في حرمةِ الهيكل وعصمةِ بعل. لا امرأة أَمنع وأنقى منكِ وإنْ كنتُ أشمُّ في عطرِكِ ذكرياتِ الحشيش البعلبكيّ العريق الذي أزهرَ تراثُه قبْل أيّامِ الحشّاشين، إخوانِ الدعوة وفدائيي السِرّ في صراعِ القهر، فصْلًا تِلو فصْل.

بك

ليس في عطري المُعَاصرِ كثيرٌ مِنْ غابرِ تلك الذكريات، ملوِّثاتِ الأصل منّا في الشكل والمضمون.

عطْري طِيْبُ الريحان الحُرّ، البِكْرِ، البريءِ الذي لم يكد يلطِّخ بِشرّ.

بعل

الحشيشُ، رمزًا، نبْتُ رؤًى في أُمّةِ البستان، بستانِ المعرفة المتنوّع الشجر.

شجرةُ المعرفة، منذ تفّاحةِ الزَوْجَين الأوَّلَين في جنّةِ عدْن إلى تفّاحِ ملايين ملايين البشَر في جنّاتِ اليوم فما بَعْد، شجرةُ المعرفة، هذه، ما تنفكّ تمتدّ جذورُها وتتشعَّب فروعُها في مختلفِ عوالم الحياة ـ وفي سواها ـ حتى إنّ المعرفة كادت تقضي على حضارةِ الأسرار، أسرارِ الدِين وأسرارِ الدنيا وما بيْنهما. فأصبحتِ المعرفةُ، في مَصيرها المستمرِّ التطوّرِ ـ والتفجّرِ في أحيان ـ، جدليّةَ إيجاب هو في أشملِ أسبابِ التلاقي، مع ما بالتلاقي من سلبيّاتٍ غامضةِ النتائج.

أنا ـ بَعْلَ، سيِّدَ يتيمَي الفردوس الأوَّلين وعبْدَهما ـ أنا ثمرةُ مَن ثَمَّرَ تلك الشجرة. تفاءَل بي خَلقٌ كثير، فآمنوا، وأمَّلوا، وأحبّوا. تشاءم بي خَلقٌ كثير، فكفروا، ويَئِسوا، وضغنوا.

أنا الكاملُ. أنا الناقصُ. أنا البعلُ إلهًا. أنا البعلُ إنسانًا.

عالَـمُ الأرَضِيـن أضيـقُ مِنْ مُـرادي. عـالَـمَ الأفـلاك أريـدُ. عـالَـمَ الأفلاك...

بك

مهلًا، حُبّي، مهلًا. أما قلتَ مرارًا إنّ عالَم الأفلاك يعلِّم التواضع؟

بعل

هو التاريخ هو التاريخ، في بعضِ حالاته، يُصيِّر الإلَه، لا الإنسَ فقط، وحشًا في شيطانِ جشَعٍ وتكبُّر. ليست قدرتي، أنا الإلَه، هي التي تثيرُ فيّ هذا الشيطان؛ ولكنّ فكرةَ وجودِ الإله هي التي تثير الشيطان، إذ يبدو أنّ محاولته أنْ ينزع فكرةَ الإله مِن ضميرِ الكيان الناطق أمرٌ عسير، شِبهُ مُحال.

بك

شيطاننا، هذا الوحش، قويٌّ على الضعيف؛ ضعيفٌ حيال القويّ؛ كأنّما هو مَثلُ الجبان.

بعل

لا أخافُ أنْ أَموت. ولكنْ مِن هذا الجبان المحنَّك أخاف. أخافُ

حينما يوسوس لي يوحي أنّه لم يبقَ في وسعي أنْ أحيا على رجاءِ القصدِ الذي أريدُ. ألحياتي مَعْنًى إنْ خلَتْ مِن هذا القصد؟

بك

الحياة التي نستحقّ هي الحياة التي تستحقّنا.

بعل

أنا حيٌّ ما دمتِ حرّة. أنتِ حرّة ما دمتُ حيًّا. سعادةُ الحياة التي ليست إلّا نقيضةَ الشقاء، سعادةٌ سلبيّةُ الفحوى.

كلانا على إيجابيّةِ مستوًى فريدِ الجوهر والوجود. ليس زواجنا، هذا المدَنيُّ المُهَيكَل، فراشَ إله مع إنسان. إنّما فراشنا الزَوْجيُّ شخصيُّ رجُلٍ مع شخصيِّ امرأةٍ في مُثَنًّى رُوحٍ ذاتِ لحم ودم.

بك

ماتت مقدَّساتُ المفهوم الغابر، مقدَّساتُ المقدَّدات المعلَّبة المحتكَرة. عاشت مقدَّساتُ المفهوم الحاضر، حيويّاتُ الحقوق في مشاعِ طبيعةِ الناس.

مات وثنُ الإله. عاش إلهُ الإنسان.

صرتَ مِثلي بَشرًا، بَشَرَ نفْسٍ وجنسٍ وشؤونٍ أُخرى.

بعل

(يهمّ بأنْ يتكلّم، ثم يُحجم.)

بك

ما وراءكَ؟ هلّا تتكلّم. الصوت، هنا، للكلمة. الكلمةُ، هنا، صوتُ الشّعب.

هبَّ شَعبُ الهياكل يَنشد مَلكيّةً جمهوريّةَ المواقف يتجسّد عهدُها في سجايا الأرض ولا يستوي عرشُها على مُعْطى السموات.

بعل

هو حُكمُ الواقع يريدني أنْ أريدكِ وفْقَ المقاصد التي يريدني أكثرُ الناس أنْ أُريدَ. لكنْ، مع ذلك، أَجدُ المشكلة، هنا، ما تزال هي إيّاها، أو تكادُ تكون.

بك

أين المشكلة؟ لا مشكلة بيننا.

بعل

هذه المشكلة ليست أمورُها بينكِ وبيني. ولكنّها بيننا وبين الآخَرين، وبيننا وبين سوانا.

بك

أَكُتِبَ علينا أنْ...

بعل

التاريخُ. مشكلةُ التاريخ. لا مَفرّ مِن التاريخ، مِن أحداثِهِ، تحدّياتِهِ، أحكامِهِ. لو نعرف التاريخ. لو نفهم التاريخ، تاريخَنا الخاصّ وتاريخَنا العامّ.

بك

ما التاريخ؟

بعل

سؤالكِ هو بنفْسه مشكلة. لو حاولنا أنْ نحدِّد التاريخ فحسِبنا أنّا نستطيع أنْ نجعل له تخومًا جامعة تحتويه مِن أَلِفه فما بَعْد، لَوقَعْنا، لا محالة، في بعض حبائلِ الوهميّات.

ما هكذا نهجُنا. إنّما التاريخ، عِنْدَنا، مَنطقُ حركةٍ وتطوّرٍ ـ مع ثورةِ أحيان ـ في صميمِ التجربة عقلًا وقلبًا متفاعلَين على مجرَى اتّحادٍ متنوِّعِ الفصول.

بك

أَصبتَ. صدقتَ. مِن هذه التجربة انطلقْنا. سِيرتُنا المشترَكة ـ حياةُ زواجنا الذي هو سِرُّ هيكلنا ـ لم نبدأها بنظريّةِ افتراض؛ ولكنْ بدَأْنا مِن واقعِ أمْرنا إلى مبتغاه. لم نزعم، في الأقلّ عِنْدَ المنطلَق، أنّنا على أَفضل ما أمكنَ أنْ نكون فيه، بل سَعَينا لأنْ نَكون حقيقةَ سِيرتنا في ما تَشوَّفْنا إليه مِن طُموحِ سُبلٍ وددنا لو تفضي بنا، يومًا، إلى مَشارف القصد.

بعل

كنّا ما نزال في مَراحلِ الإبهام، طفولةِ الشجرة، شأْنَ بَدْئيّاتِ المعرفة. فاشتغلتْ فينا مُقلِقاتُ وجود؛ وامتدّتْ بشوطِنا غَدَويّاتُ إبعاد. فبتْنا مِن سِرِّ الهيكل في أزمةِ هذين الموقفَين: إمّا أنْ نسلكَ ثَمّ

وكأنّ سيرتنا هي في صميمِ التاريخ، وإمّا أنْ نَعدّها إضافةً إلى بعضِ مُلحَقاته.

بك

ألا ترى أنّ تنازُعَ الموقفَين يدور على مِحورِ تاريخنا؟ فالهيكل، الذي تجسَّدتْ فينا رُوحُ إضافيّته، قد بُني مَنطقُه على سيرتنا إذ تكوَّنّا فيه.

بعل

خليقٌ بنا أنْ نقارب التاريخ، ميثاقَ زواجنا، مقاربةً إنسانيّةَ المضمون تُجاري ثم تجاوزُ العِلميّاتِ الصحيحة التي تزداد محدَثاتُها تحريرًا لنا وهجومًا علينا كلما نبتَ في رأسي قرنٌ جديد متفاعلُ الإيجاب والسلب.

بك

قرنٌ جديد مرة في كلِّ مئةِ سنة، مرة واحدة لا غير...

بعل

الواقع أنّ التاريخ بطيءُ النموّ وإنْ بدا قرنُه مُسرعًا.

التاريخ، تاريخنا في الأقلّ، جدليّةُ معرفةِ تَسَلسُلَ أعمال في تداولِ أيّام على تناسخِ عهود.

هكذا يتكوَّن التاريخ في مَنطقِ سيرتنا، فَنَتَكَوَّن بمَنْطقه في سِرِّ هيكلنا.

بك

أجَدْتَ إذ قلتَ: «معرفة» بدلًا من أنْ تقول: «بحثٌ عن حقيقةٍ» هي، عِنْدَنا، أُمُّ حيويّاتِ الضمير. فإنّما النتيجة هي جُلُّ ما يَعنينا هنا، إلى حين، لعلّها تفضي بنا مِن بحثٍ إلى مَواطنِ معرفة.

بعل

تاريخُ سيرتنا سَفَرٌ في مَغْنَى الأرض. بحثٌ في. لا بحثٌ عن. بحثٌ في طَبَقاتِ حقيقتنا منذ عصورنا الجيولوجيّة كما تُمثّلها متحجّراتُ بَشَرٍ وحيوانٍ ونباتٍ، إلى أيّامنا هذه الإلكترونيّة كما تُمثّلها أحدثُ منجَزاتِ المعرفة. ولا غِنى لنا، حيال ذلك، عن أنْ نعارض حقيقتنا في التاريخ بمعرفتنا إيّاه كيما نفهم فنحتوي...

بك

نفهم؟ نحتوي؟ على رِسْلكَ. رَبُّ الآلهة وحْده، دوْن سائرِ الأرباب، يقدر أنْ يفهم وأنْ يحتوي كمالَ الحقيقة والمعرفة. أمّا أنتَ، فقد تنزَّلتَ عن حقِّك في الكمال لمّا نزلتَ مستقيلًا مِن سمائك فاقترنتَ بي على النحو الذي اخترتَ. لكنّك، مع هذا كلّه، تبقى رَبَّ هيكل، بَعْلَ بكّ على عرشِ حُبّ.

بعل

ذلك هو الواقع الذي لا ريب فيه. إلّا أنّه ليس اعترافًا بعجز، ولا هو انكفاء عن جهد. إنّما زواجنا عملٌ. عملٌ بشَريّ لا إلهيّ. عملٌ مُتّضع يبني نفسَه في آخَره حَجرًا على حَجر طُموحًا منّا إلى أنْ نُكمِل هيكلًا يحتاج أبدًا إلى إكمال.

بك

سِيرتُنا، زواجُنا، عملُنا، بَدْءُ تقدُّمٍ خطوةً فخطوة. في وعي منّا وحذر. وفي خصْب. إنّها، على عمقها واتساعِ مَداها، سيرةٌ محدودةُ الموضوع، مسافةُ الشأو بَيْنَ الحقيقة التي نَرودُ والوسائلِ التي نستخدم لكي نقارب هذه الحقيقة.

بعل

ذلك في طبيعةِ عملنا، شريعةِ زواجنا، حضارةِ الهيكل.

بك

ما ذلك بالشيء اليسير. ولا هو باللاشيء.

بعل

غير أنّه ليس كلَّ شيء. وليس هو الشيء الذي يكرِّر نفْسه بنفْسه أو بآخَره أو بغيره، أو بها جميعًا.

حقيقةُ سِيرتنا، فحْوى تاريخنا، هي ما ينبض فينا مِن تراثِ قِيَمِ التجدُّد - قِيَمِنا وقِيَمِ سوانا - فيصير في تصميمِ غدنا المطِلِّ على مستقبلنا البعيد.

بك

تعني أنّ التاريخ مَصيرُ التاريخ؟

بعل

مَصيرُ التاريخ ولكنْ مِن بَعْدِ كينونةِ التاريخ.

أوَّلَ الأمرِ أرى التاريخ مِثلَ شبحٍ مجرَّد، غامضِ الشكل بلا ظواهرِ وجود.

بك

كم مِن مَشقَّةٍ في نموِّ التاريخ!

بعل

أمِنْ كينونةِ عملٍ بلا مَشقَّة؟ إلا أنّنا إذا عرفْنا كيف نتمرَّس بتاريخنا، ـ سيرتِنا في الهيكل، ـ تولَّينا تاريخنا بكنْهيّاتِ أسئلةٍ خليقةٍ بأنْ نواجهها، لعلَّنا نجيب عن أكثرها ولو سلبًا. فاتضح لنا أنّ التاريخ تمتدّ آفاقُه أمامنا أضعافَ ما تنطوي وراءَنا صفحاتُه. وتبيَّنَ لفهمنا إيّاه، مَرحلةً فمرحلة، ما استطعنا وما قد نستطيع مِن حقيقةٍ سبيلنا فيه.

بك

المهمّة الكبرى، هنا، هي جدليّةُ السؤال.

بعل

قبْلَ عهدِ زواجنا، قارَبْنا سيرتَنا مقارَبةً مُفْرَدة، مُجزِّئة. فاقتصرْنا على إجماليّاتِ حقيقتنا وعلى تاريخيّاتها العامّة. وقصَّرْنا عن خواصِّ الشخصانيّة التي هي، عِنْدَنا، مُثنًّى ذاتٍ في أُمّةِ جُموعِ التنوُّع والتعدُّد. فاعترتْنا عِللٌ نقرتْ حجارةَ هيكلنا، فنفذتْ إلى عمقِ روحيِّه تعيثُ وتغبثُ. فلاحَ مُعْظمُ أمْرنا، قبْلَ عهدنا بالقِران، وكأنّا كيانٌ مُجرِّحُ الإنسان، مُقسِّمُ الفئات، صنوُ الفُتات مِن التاريخ.

لكنْ، بَعْدَ سِرِّ زواجنا المدَنيِّ المُهَيْكَل، بات لنا، في

التئامِ تاريخنا، التزامُ حياةٍ جديدة جامعة، ومَوقفٌ إزاءَها أَشمَلُ وأَرحب.

بك

تقصد أنّنا أصبحنا نعاني أمورنا، سَلَفيَّها وخَلَفيَّها فضلًا عن يوميِّها، معاناةً جوهريّةَ الوجود، عَمَليّةَ الاتحاد روحًا وجسدًا، وأنّنا لم نبقَ نعاني أمورنا معاناةً غيْبيّةَ المحتوى، تاريخيّةَ الاتجاه فحسب؟

بعل

نَعَم. هكذا تَحرَّكنا، فتقدَّمْنا. إنّما الخطر، هنا، هو بمحافَظةِ الجُمودِ تقيُّدًا لا عن وفاء. ولو لم نتحرَّك فنتحرَّر، لكُنّا تخلَّفْنا في أغلبِ الأحوال. غير أنّنا، مع ذلك، اختبَرنا أنْ لا ندحة لنا عن التريّث في بعضِ مواقفنا نَذكرُ أنّ لكلِّ بيئةٍ من مَواطنِ سيرتنا مميِّزاتها التي تثير قضايا كثيرةً تطرَح أسئلةً كثيرة.

بك

أما تَوافَقْنا في أن المهمّة الكبرى، هنا، هي جدليّةُ السؤال؟

بعل

آيةُ هذه الجدليّة هي أنْ نعرف كيف نسلكُ حيال أسئلة تُلقيها علينا كلُّ بيئة مِن أُمّةِ سيرتنا. حتى إذا سلكْنا، فالتزمْنا، فأَبعدْنا، أَجبْنا، ـ أو اعتقدْنا أنّنا أَجبْنا، ـ فتقدَّمْنا عمقًا وسعةً وتعاليًا. براعةُ السُلوك، ألمعيّتُه، شهامةُ ذاته وموضوعِه، تلك كلُّها ممّا نبتغي في أُسِّ نهجنا، رأسِ جوابنا، وقد قمنا نبني الهيكل، روحًا وجسدًا، لعلّنا نُكمِل...

بك

ما تفتأُ تُردِّدُ «نبني الهيكل... نُكمِلُ...» مع أنّ هيكلنا كان قبلما كنّا.

بعل

البناء ديمومةُ عملٍ، عملِ نهار وليل في نيّةِ إكمال. تاريخُنا الحيّ، الصغيرُ، الكبيرُ، ـ تاريخُ الهيكل، ـ مَوقفُ بناءٍ على قواعدِ فَهْم. ولو أنّا نَقْبل قبْل أنْ نَفهم، لَما كان عِنْدَنا للبناء ما لهُ من عمقٍ تأثير في مَنطقِ التاريخ.

بك

ألا نَقْبل إلّا ما نَفهم؟ كم مِن أشياءَ تَفوتنا، أشياءَ مِن داخليِّ الهيكل وأشياءَ مِن خارجيِّ الهيكل!

بعل

ليتنا نَفْهم كلَّ شيء. يومئذٍ لا مَناطقَ فراغ.

بك

ـ مَناطقُ فراغ، أو نَعرفَ كيف نَملأُ.

بعل

لو نَعرفُ كيف نُفعِمُ هيكلَ زَوْجيّتنا، إلفَين متجانسَين، إيمانًا منّا بوحدة الكيان في بَرَكةِ المشارَكة وحُرّيةِ النظام المؤسِّس.

بك

أيكفي أنْ نَعرف؟ لو نريد ما نَعرف نتقرّاه في بياضِ ما له وسوادِ ما عليه.

بعل

ذلك كلُّه، على بُعدِ شوطه، لا يكفي هنا. أمامَنا ممكناتٌ أُخرى. طاقات. إشارات. مَشاهدُ رُموز. طبقاتُ عوالم هي مِن تراثنا، سماءً وأَرَضين. إلى آخِر ما بسِفْرنا الكونيّ مِن فُصولِ بياضٍ ومِن سوادِ فصولٍ، في طبيعةِ رخاءٍ وضِيْقٍ يتناوبان على الفهم ذاتًا بذِمَّةِ موضوع.

بك

بنعمةِ الذات في هيكل الحُبِّ نَصيرُ اللبابَ، قلْبَ الموضوع، موضوعِنا الذي نفنى فيه.

بعل

حقًّا قلتِ، فاجتنبتِ الموضوعيّةَ الكلّيّةَ التجريد، العاريةَ مِن شخصيّةِ الذات. إنّما الفهْم الأَولى هو اقترانُ الذات بالموضوع في عهدِ إيمان بالحُبّ.

بك

عَنيتَ أنّ هيكلنا زواجُ حُبّ؟

بعل

ذلك بعضُ ما عَنيتُ. والأظهَرُ، في أوّلِ وهلة، أنّ مَوقفنا هذا العاطفيَّ ربما عرقل فكرَنا الناقد. لكنْ إذا رَكَنّا إلى الاختبار، وجَدْنا أنّ

الحُبّ كثيرًا ما زكّى المعرفة يُخْصِبها، يشقُّ دوْنَها آفاقَ التقدّم والرقيّ في اقترانِ الذات بالموضوع.

لو نُحِبّ إذ نتقرّى ونَنْقد، فنبني، في صميمِ الهيكل، حياةَ سعادة هي سعادةُ تاريخ.

لو نَسْلكُ دُروبَ الحُبّ، هذا البسيطِ المركَّبِ والصعبِ اليسير، فنبني، في اتّحادِ ذاته بموضوعه، سعادةَ تاريخ هو سعادةُ معرفة.

بك

زواجُ السعادة، تاريخًا ومعرفة، قَدَرُ نصيبنا في هيكل الحُبّ.

ما يَحدث هنا نحاول أنْ نعرفه لنفهم غايةَ حياتنا فيه، لا مِن أجْله هو نحاول.

بعل

حسْبنا أنْ نكون في مَنطقِ أحداثٍ يتجسَّد بها مَعْنى الألوهة على مستوى الإنسان شخصيًّ فَرْد وجُموع ـ أحداثٍ حقيقةٍ في واقعيّةِ شؤون.

بك

أمام التاريخ وأحداثه أخافُ كلّما ذُكرَ الإنسان.

بعل

لمَ الخوف هنا إلّا في طوارئ استثناءٍ؟ ليس التاريخ وقفًا على الإنسان وحْده، بل على الإنسان والطبيعة معًا. أحداثُ البَشر وأحداثُ

الطبيعة متداخِلةٌ تفاعُلًا في سِرِّ الزواج الذي عقَدتْه جدليّةُ الحياة والكون.

سِيرتُنا في الهيكل هي مِن عملِ البشَر في حضارةِ الحجَر، ومِن عملِ الحجَر في حضارةِ الإنسان ـ البشَرِ في طبيعةِ التاريخ، والحَجرِ في تاريخِ الطبيعة.

المعرفة، هنا، لا يقتصر عملُها على الطبيعة وحْدها، ولكنْ يجاوزها إلى بِنْيةِ البشَر، تَحْتانيِّها وفَوْقانيِّها فضلًا عن سطحيِّها الذي لا بدّ منه في أحيان.

هكذا ننمو حجَرًا على حجَر في سِفْرِ أعمالِ الهيكل خبَرَ حقيقةٍ إلى خبَر، فنرى أنّ ما يَسْلم عِنْدَنا، ولا يكاد يُهدَم، يتكوَّن به الحدَثُ الذي يستحقّ الحياة...

بك

وهكذا يَصير الحجَرُ حدَثَ بشَرٍ، ويَصير البشَرُ حياةَ تاريخ. أَصبتَ: لا مُسوِّغ، هنا، للخوف إلّا في طوارئ استثناء.

بعل

الحدثُ، في أثنائه وقبْلَها ومِن بَعْدُ، مَراحلُ كشْفٍ يتجلّى لنا فيه وجهُ الحقيقة، أو ما نحسَبُه إيّاها. فنَجوسُ حاضِريّاتِ زماننا، هذا، وقد أصبحنا بضَواحي القرن الحادي والعشرين. فنَجدُ أنّ قِوامَ تاريخنا المعاصر ثوريّاتُ معرفةٍ تتعامل فيها، بَدْعًا وصنعًا، محتوَياتُ النفْسِ والعقلِ والروحِ والجسد والغرائز وسائرِ المعنويّات والمادّيّات وما عنها

وما إليها، على تنوّعِ أصولها وفروعها، وعلى تعدّدِ أبوابها إجمالًا وتفصيلًا.

بك

أنكون على بعضِ مَشارفِ الخلاصة النهائيّة؟

بعل

في نحوِ عامّ، لا خلاصة نهائيّة. الخلاصة، هنا في الهيكل، مشروعُ تكامُلٍ حَرَكيٍّ، مستمرٌّ المصير. وكلّما امتدَّ بنا العمق فاتّسعَ أُفقُ المعرفة، تبيَّنَ لنا أنّ المعرفة فعلُ طُموحٍ لا ينقضي أجَلُه. فهو يستمدُّ ديمومته مِن محدودِ ما نمارس وقد آمنّا بأنّ الألوهة وراءَ كلِّ عملٍ لنا ولآخَرنا ولسوانا في عوالمِ السلم وفي عوالمِ الصراع، كأنّما الألوهة مَشيئةُ الأبد.

بك

لكنْ ألا ننهار، نحن والهيكل، إنْ لم يبقَ تاريخُنا، لِعلّةٍ ما، وقفًا على مَشيئة الألوهة؟

بعل

الواقع أنّ في الازدواجيّة، بَيْنَ مَشيئةِ الألوهة ومَنطقِ التاريخ، مَناطِقَ زلازل ربما ضربتِ الهيكل تُزعْزِع. وكلّما انفجرتْ بنا ثورةُ زلزال، تَقلّبْنا نحن والهيكل، ثم تَماسَكْنا لئلا نَسقط، وقمنا نتكيَّفُ حيالها تخفيفًا عنّا على قدْر المستطاع. فأَفلحْنا تارةً، وأخفقْنا تارةً أُخرى.

رأْسُ مُهِمَّتنا، هنا، هو أنْ نعرف كيف نَكون في ما يزلزلنا لكي

نعرف كيف نكون في ما لا يزلزِل. تاريخُنا، في عمقِ الهيكل، تُفعِّلهُ أجيالُ الأسئلة التي تَدور على ثنائيّةِ هذا المِحور.

لولا أجيالنا هذه لم يكن لنا مِن حيويّةِ جوهرٍ ولا مِن حركيّةِ وجود. مَنطقُ التاريخ، عِنْدَنا، مسوِّغاتُ جدليّةٍ في مجرى أحداث.

بك

ما تحت الأسئلة، ذلك هو القصدُ الجلَل. كلٌّ صفحة في تاريخنا، من أَلِفِ الهيكل إلى يائه، هي فلسفةُ تاريخ. كلٌّ عمود في هيكلنا، مِن القاعدة إلى القمّة، هو فلسفةُ هيكل تَبْنيه، إذ تتكوَّن فيه، سعادةُ زوجَين في مغامَرةِ معرفة.

بعل

مغامَرةُ معرفة: طلَبُنا المزيدَ. نبتغي. نتحرّى. نتقصّى. وكلّما وجَدْنا، أو حَسِبْنا أنّنا وجَدْنا، التزمْنا موجودَنا هذا نترجمه إلى التجربة الميدانيّةِ، الحيّةِ بناءً ولو على سلب.

إنّ هيكلنا فَقدَ براءتَه البِكرَ حيالَ أجيالِ الأسئلة التي ما تنفكّ تتعاقب عليه. فغدا في أمسِّ حاجةٍ إلى أنْ ننقذه وكأنّا نخترعه نتجدَّد به تحريرًا له وتعهُّدًا لمستقبلنا فيه.

بك

مَوقفكَ هذا، بل مَوقفنا حِكمةُ سلامةٍ خليقٌ بنا أنْ نستمسك بأشيائها وقد أَخذتْ تغترب عنّا. لسنا نجهل أنّ للاغتراب، هنا، أسبابَ طبيعةٍ انزعجتْ منّا فُصولُها. فاتّسعتْ بينها وبيننا هوّةٌ عمَّقها نموُّنا في

محدَثاتِ الحضارة الكونيّة التي أَزْكتنا، فأَنجزتْنا على قدْرٍ ما. غير أنّها، مع ذلك، اقترحتْ علينا أنْ نعود إلى طبيعتنا لا عودةَ التاريخ الذي يُعِيد نَفْسَه، بل عودة الوفاء لأصولنا على هدي مِن كوْنيَّتنا التقدُّميَّةِ الطُموح.

بعل

لعلَّ رجوعنا إلى الجذور يتيح لنا عواملَ استقرار كثيرًا ما افتقرْنا إليه إذ نحْن على ما نحْن فيه مِن تفجُّرِ غَدَويّات.

بك

يَتَمَثَّل لي، عَرَضًا أو اعتراضًا، أنّ هذا الرجوع ربما امتدَّ بنا، في الأقلّ، إلى عهودِ قياصرة الرومان الذين أَخضعوا المسكونة مئات السنين. فبنَوْا، في ما بنَوْا على أُسِّ استعمار، حضارةَ هيكل احتملهم زمنًا طويلًا، ثم هبَّ يأبى حكْمَهم، يحطِّم آلهةَ نظامهم، أوثانَ رومة وما قبْلها.

هنا يداخلني السؤال التقليديّ القديم: لماذا احتلَّ الرومان عوالمَ جنوب وشرق وغرب وشمال يَفْسَحون لكلِّ عالَمٍ منها أنْ يسوس نَفْسَه على مبادئ التوافُق والمساواة؟

بعل

هذه المبادئ المثاليّة لم تكن مَقاصدُها إلّا بظواهرِ الحكْم الرومانيّ. أمّا بواطنُه، فعنفُ استعباد وغلوُّ استئثار كابدَهما الهيكلُ الإغريقيّ وأكثرُ هياكل التوازن والاعتدال.

بك

رومة، على عظمتها، استعمارٌ مرفوض، بائد.

بعل

مرفوض؟ في الأرجح. بائد؟ لا أدري؛ أَشكُّ. أليس لبعضِ قياصرة الرومان نُظَراءُ تسلّطٍ واستبدادٍ في سوادِ العصور، مِن أقدَمها إلى يومِ الشعوب هذا؛ وفي الأغلب، إلى ما بَعْد؟

بك

أحداثُ التاريخ لا يكفينا، وخصوصًا هنا، أن نتدبَّرَها على أنّها روزنامةُ الأُمم؛ ولكنْ، فضلًا عن ذلك، نتدبَّرُها على أنّها حقائقُ المصير في كيانِ الأصالة ورُكْنِ الضمان: حرّيَّةِ الهيكل.

بعل

في حرّيَّةِ هيكلنا، حُرْمتِهِ، الشِعرُ مَصيرُ الحقائق. أَحببْنا. بَنَيْنا. تَسامى بنا الإيمان. بات كلُّ واحد منّا وحْيَ الآخَر. ديوانَه. شهوةَ عُمْره. عمودَ حياته مُنتصِبًا في وضوحِ الشمس وغموضِ اللّيل. بالشِعر حُبُّنا صلاة، والهيكلُ مَعْبدُنا. فيه نبتهلُ بصوتٍ عالٍ ورأسٍ منخفِض. هيكلُ حُبِّنا صخرةُ إيمان بما نَبْني وبما نؤدّي. جغرافيةُ عالَمنا، هذا، روحانيّةُ حجارةٍ في شجاعةِ رؤًى وشهامةِ حضارةٍ وتَمدُّنٍ.

بك

عالَمُنا، في زَوْجيّةِ الهيكل، لا تُميِّزُ جغرافيتُه ذَكَرًا عن أنثى، ولكنْ تُساوي بينهما في كرامةِ استقلالٍ ومَناعةِ ذات، مع رحمةٍ مشترَكة تَبْسطُ خيْرَها في مَدى تصوُّف هو غِنَى فَقْر وجوهرُ قِيَم.

بعل

في زَوْجيّةِ الهيكل، مِن خلالِ الخطيئة وسائرِ المحرّمات، لا مِن خلالِ النعمة وحْدها، قام تاريخنا يصنع نفْسَه بخُلاصتنا المخلّصة وقد عَطشْنا إلى يدٍ إلهيّة تَصِلُنا بفيضِ الحقيقة التي تُوحّدنا على رغمِ مِن آفاتِ التقسيم.

بك

سَمِعْنا. اكتشفْنا. صُدِمْنا. تأمَّلْنا. بَيْد أنّا، قبْلَ هذا كلّه، آمَنّا بأنّ كلّ واحد منّا هو الضَيْف والمضيِّف.

بعل

الضيافة، عِنْدنا، ثقةٌ. أمانةٌ. ميثاقُ شَرَف. لكنْ قد يكون ثَمَّ خيانةُ عَهْد.

بك

خيانة؟ لا يهوذا هنا. الضيافة، إشراقًا، عَشاؤنا السِرِّيّ. نتناول الحقيقة، ـ غذاءَ الهيكل، ـ في صفاءِ قلب ويقظةِ ضمير. نريد بآخَرنا ونريد بسوانا ما نريد بأنفُسنا في وليمةِ الكلمة: اقترانِ الذات بالموضوع.

بعل

تلك أبجديّةُ حوارنا لغةً نجدِّدها، وبها نتجدَّد. نمارس أسرارَها المعْجِزة. لا نضيِّع العمر في مَجاهلها. ننهض نُسابق مستقبَلَ انفتاح يوطِّده في حيويَّتها تطوُّرُ كينونةٍ وشبْهُ قَدَريّةٍ ثوريّةِ المصير.

بك

لُغتُنا حضارةُ إيمانيّةٍ موحَّدة، على تنوّعها وتعدّدها ـ وعلى أحيانِ اختلافها ـ أجيالَ طوائف ومَذاهب ومعتقَدات.

بعل

لُغتنا عروةُ زَوْجيَّتنا في اتحادِ النفْس بالنصّ روحًا منّا وجسدًا.

بك

إلّا أنّنا لا نتيح للّغة أنْ تُضيِّقنا ولا أنْ تُطوِّقنا.

بعل

لا تضييق. لا تطويق. مرتجى لغتنا وطنُ ترحيبٍ بأشياءِ خَلْقٍ كثير نَسَعُهم وسْعَ هيكلنا أهلًا وسهلًا. نأخذ ونعطي على بَرَكةِ مَعِيَّتهم، في نهْجِ تبادلٍ حُرِّ التعامل، أبيٍّ، مبتكَرِ الطُموح.

بك

جميل. جميل. ولكنْ لو نُيسِّرُ لُغتنا في مُصَغَّرِ انقلابٍ أبيض فتصِلَ إلى عفْويّةِ الشَعْب.

بعل

تيسيرٌ، أجَلْ. تصغيرٌ، كلّا ثم كلّا. إنّ اللغة حياة. روحٌ، لا أداةُ حَرْفيّة. إنها رسالةُ مَجّانيّة. صوتُ حرِّيَّة في...

بك

كرامةِ مَعرفةٍ ورعايةِ نظام. إنّ اللّغة الحيّة مَجْدٌ مسؤول. لا يتكلَّم اللغة الحيّة إلّا الحُرُّ عقلًا وقلبًا وفصاحةَ لسان. هنا يَصعب عليّ

التفسير. حسْبي القول بأنّ مرتجى لغتنا شبابُ هيكل قد يَشيخ، لكنّما إنسانُه لا يَهرم وقد توالدتْ في تجدّدِ طبيعته أَرْبَعِيَّةُ الفصولِ مَوسمَ خصْبٍ في إثرِ مَوسم.

بعل

هكذا نأكل. هكذا نُطْعِم.

بك

أليس مِن أمْرٍ، هنا، أَولى مِن الأكل والإطعام؟

بعل

الأكل والإطعام إذا تخطَّينا فيهما السطحيَّ إلى كسْرِ الخبز مَثلًا ـ مَثَلَ السِرّ ـ لا حصرًا، كان أمْرُهما، لدَيْنا، قِوامَ الشأن مِن أوَّله إلى آخِره.

كم مِن أشياء في الأكل والإطعام!

بك

لكنْ، مع ذلك، أَذكرُ أنّ بعضَ مَن جاءونا استغربوا ما وقعوا عليه عِنْدنا لم يتقدَّم لهم أنْ رأوا مِثْلَ هيكلنا الزَوْجيّ، حيث الشجَرُ والطيرُ في صميمِ حضارةِ الحجَرِ الجبّارِ بَشَرَ أعمدةٍ عميقةِ الأرض والسموات. فلمّا سألْتُهم مِن أين أتَوا، قالوا إنّهم أتَوا مِن ديارٍ وحْشةٍ ليس بها سِوى الحجَر الخالي كأنّها خَرابُ قبور هَجَرتْها جثثُ السكّان.

بعل

ذلك ممكن. كلُّ شيء منه ممكنٌ إذا غابتِ البَشَرُ والطيرُ وخلا

الحَجرُ ـ كلُّ شيء حتى موتُ القبور. أمّا القبور الحيّة، فهي تلك التي يتولّاها الإيمانُ بحقيقةِ تجاوزُ الموت لا تني تَكون فتُكوِّن، وتَصير فتصيِّر، ولو بات إنسانُها تحت التراب.

بك

عجبًا مِن الحياة كيف لا تَشطعُ بأَشرَقِ مَعانيها إلّا إذا عارضناها بالموت.

بعل

لا عجب. ذلك دستورُ الضدَّين. دستورٌ بِدائيّ لا نظام له مع أنّه بلحظةِ كلٌّ نظام. دستورٌ غيرُ مكتوب أشبَهُ بدساتير بعضِ الملَكيّات العريقة المحافِظة وبعضِ الانقلابيّات التقدّميّة المعاصرة. دستورُ حُكمِ تَناقضٍ لا يحتمل الجدَلَ ولا يحبّ المزْحَ. جِدّيٌّ هو، جِدّيٌّ جدًّا، جدًّا جدًّا فوْق ما نتصوَّر.

بك

السؤال البديهيّ: لمَ ذلك الدستور؟

بعل

الجواب البديهيّ: لا غِنى عن الدستور ولا بدّ منه. الهيكل بلا الدستور شُغورُ وجود. حتى أنا، سليل الألوهة، ما كنتُ لأَشعر أنّي زوْجكِ بالفعل لولا روابطُ الدستور.

بك

أَصبتَ. صَدقتَ. لكنْ دَعْ عنّا الآلهة، ولنَسْلُكْ في سويّةِ البَشَرِ، أبطالًا أوْ خَلْقًا عاديِّين، حيالَ دستورِ الضدَّين: الحياة والموت. أما تَذْكُرُ حميمًا لنا كريمًا أمكنه، على بساطةِ سيرته، ـ وإيمانِه، ـ أنْ يجاري بعضَ أبطال الأساطير لا لسببٍ إلّا لأنّه، مِن خلالِ ذلك الدستور، سَلكَ في مستوى حقيقةِ الإنسان؟

بعل

الواقع أنّ البطَل الأكبر هو مَن يستطيع أنْ يَسلك في مستوى حقيقةِ الإنسان، زوجًا كان البطَلُ أو أُمًّا أو أبًا أو ولدًا.

بك

ذلك المستوى بطولةٌ أَمرٍ عسير.

بعل

الشجاعة والألمعيّة والولاء مِن أوفى مزايا البطولة.

بك

لكنْ أيَسعد الأبطالُ على قدْرِ مزاياهم؟

بعل

في عالَمنا ـ عالَمِ الهيكل، باطنِه على الأخصّ ـ تبيَّنَ لي أن البطولة قلّما عرفتْ جوهرَ السعادة.

بك

أيُفلِح الأبطالُ على قدْرِ مزاياهم؟

بعل

في عالَمنا ـ عالَمِ الهيكل، باطنهِ على الأخصّ ـ تبيَّنَ لي أنّ البطولة قلّما عرفتْ جوهرَ الفلاح.

بك

تريد أنّ البطولة قلّما وفَّرتْ لسواها جوهرَ السعادة والفلاح؟

بعل

نَعَمْ. وإلى هذا أريدُ أنّ الناس، على العموم، لا يَعنيهم سعادةُ البطولة وفَلاحُها إلّا بقدْرِ ما ينتفعون بهما.

بك

تريد أنّ الناس، في داخلِ الهيكل كانوا أو في خارجه، مُعْظَمُهم نَفْعيّون؟

بعل

ذلك بعضُ ما أريدُ. فالبَشَرُ، إجمالًا، على هذه الفطرة. والبطولةُ، في الأرجح، بطولةٌ لنفْسها أوَّلًا ثم لسواها في أحيان.

بك

الأنانيّة سيِّدةُ الموقف. لكنْ، مع هذا، لا يسعنا أنْ ننعزل.

بعل

تلك طبيعة الدنيا. أجيالُ المحْدَثات، التي غيّرتْ كثيرًا من العوالم، لم تغيِّر طبيعةَ الدنيا.

بك

ندَّعي التقدّم والرقيّ؛ لكنْ، أساسًا، نبقى كما كنّا منذ البدء.

يا للخيانة! يا للغشّ!

بعل

لا خيانة هنا ولا غشّ.

بك

فماذا هنا؟

بعل

وهْمٌ. عبَثٌ. وهْمُ عبث. عبثُ وهْم.

بك

أيَكون في البطولة، وفي ما عنها مِن رموزِ السعادة والفَلاح وغيْرهما، إشاراتُ عُبورٍ لا طائل تحته؟

بعل

نَعَمْ ولا.

بك

جوابٌ مُحيِّر.

بعل

أُكرِّر: نريد أنْ نَفْهم فنَقْبَل أو نَرفض، نبني في هيكلنا ما نَقدر أنْ نحيا فيه نحْن والمستقبل؛ فلا مسوِّغ، عِنْدَنا، للماضي ولليوم الحاضر

إلّا مع الغَدَويّات. وربما بَلوْنا تقدّميّاتٍ متعدّدة الألوان، فاعتبرْنا بما أَصَبْنا في خلاصتها مِن إيجابيّاتٍ موافِقاتٍ لنا، فتذرَّعْنا بهنّ لكي نتجدَّد بَدْعًا وصنْعًا في طموحٍ منّا وكرامةٍ ونضْجِ استقلال. فأصبحَ الهيكلُ وطنَ مرتجانا الذي تتفاعل فيه مبتكَراتُ قِيَمنا الروحيّة والمادِّيَّة وقد تشوَّفْنا إلى جوهر السعادة والفَلاح.

بك

هكذا نعود إلى مُناخ السعادة والفَلاح بَعْدَ ما نفيناهما عنّا مِن غير أنْ نكفّ عن السعي إلى جوهرهما، ومِن خلاله، عن السعي ـ على قدْرِ المستطاع ـ إلى مَثلنا الأسمى.

بعل

لِنَحذرِ الوهْم والعبث. كم مِن مسافةٍ بَيْنَ المِثال والواقع! التقدُّمُ، هنا، أَغْلبُه ظواهر. أين أين الأصالة؟

بك

الأصالة! الأصالة! ما مِن حَلٍّ وسَط. الترهُّبُ كاملًا أو فلا تَرهُّب. أنصافُ الفَعَلة ليسوا بعمّال. الالتزامُ لكلّيّةِ العمل مع التخلي عمّا ليس عملًا، ذلك جِدُّ الترهُّب. الكاهنُ صنْعُ دأْبه لا صنْعُ ثوبه. هكذا تكون الأشياء الكبيرة، فتلبّي الدعوةَ الكبيرة التي كلما ارتفعتْ وعَتْ، على سموِّ قصْدها، أنّ شمْسها، يومًا، إلى أُفول.

بعل

لا أُفول الآن، بل أصالةُ إشراق عطشًا إلى جوهرِ السعادة والفَلاح ـ إلى الأعظَم علوَّ شأْنٍ وغموضَ شأْنٍ في وحْدانيّةِ فَيْض.

بك

أَفالغموض هو بعضُ الجِزْية التي نؤدّيها في سبيلِ التعالي؟

بعل

أُوَضِّحُ: لا مَدى لطلبنا جوهرَ السعادة والفَلاح، سليلَي المعرفة. غير أنّ لامَدانا، هذا، عوالمُ أبعادٍ إلى مَقاصدِ كيانٍ انفتاحًا على مُغْلَقاتِ محدود.

بك

تَعْني أنْ لا مُطْلَق في اللامَدى؟ تَعْني أنّ جُلَّ ما في الهيكل، باطنًا وظاهرًا، كيانٌ محدودُ اللامحدوديّة؟ أمِنْ شيءٍ أَصعب إدراكًا مِن المحدود اللامحدود؟

بعل

لِنحفظْ هذا الأصعب، ولنَذْكرْه بأجمعه، وإنْ لم ندركه الآن حقَّ الإدراك. فالإغفالُ، تَنْسيةً، محاوَلةٌ لحذفِ جوهرِ السعادة والفَلاح.

بك

كم قاسى جوهرُنا، هذا، مِن محاولاتِ التنسية والحذف! كم عُذِّب! كم شُوِّه! لكنّه، على ما قاسى، بقي حيًّا لأنّه رسخَ بأوفى عُمْقيّاتِ ذاكرتنا أَمْسِيِّها ويوميِّها فرجاءِ مستقبليِّها المجاور والبعيد.

بعل

أين كنتُ قبْل أنْ أكون؟ ذلك ممّا لا أَنِي أسائل عنه الذاكرة.

بك

ألا تعرف المأثورَ الأفريقيّ القديم أنْ ما دامتِ الأُسود ليس لها مؤرِّخون، فإنّ الحكايات عن صَيدِ الأُسود لن يُمجَّد فيها إلّا صيّادو الأُسود؟

الذاكرة، هنا، قوّةُ المجْد الذي لعلَّه ينقذنا مِن ضياع.

بعل

أعترفُ بأنّي ساذجٌ متهيّب في حضرةِ صيّادي الأُسود. ذلك شرَفٌ لي وعارٌ عليّ. ما ذنْبي إذا كنتُ لم أُفطَر على أنْ أَدِين؟ ألا يكفي أنّي فُطرتُ على أنْ أُحِبّ؟ حتى الذين يعتدون عليّ وإنْ تَزوَّدوا مِن كلمتي - حتى هؤلاء أَردُّ عليهم بأبلغِ الكلمات: السكوت.

بك

رفقًا بنا، نحْن زَوْجَي اللاواقعيّ المُهَيكَل، رفقًا بنا.

الخوف! الخوف! كم كابدْنا مِن خوفٍ برؤيا انهيار! عُبابُ الرؤيا دويٌّ في عمقِ أرضنا هدّارٌ يُذْعرنا يوقظ فينا النيام. فإذا ميثاقنا على مَهاوي السقوط ولا مَلاذ. كلُّ ما حوْلنا إرهاب، رعْبٌ كونيّ، كأنّ عوالمنا تَفتُّتُ نهايةٍ إلى وشْكِ انحلال. ولكنْ فجأةً يَهمد ذلك الهدّارُ الذي خَوَّفنا أنْ ينهار بنا كلُّ مؤسَّس: الميثاقُ، الهيكلُ، مَغْنى الحضارة،

فنمسي وحْدنا مع شَعْبِ موتانا، شهيدِ الاضطهاد. أمّا أقلُّنا الناجي، فصِنوُ المنكفئ مِن حربِ انهزام.

رؤيانا أسطوريّةٌ مبهَمةٌ، غريبةُ المحتوى، لها أبطالها وجبناؤها، ولها المسؤولون عنها وغيرُ المسؤولين، إلى آخِرِ ما لها ـ وما عليها.

إذا قيل، يومًا، لنا: «ما تلك الرؤيا؟» فبمَ نجيب؟

بعل

لا جواب، كأنْ لم نَسمع، كأنْ لم نَرَ.

بك

لو نَسمع، لو نَرى، فنَذكرَ أنّه مِن روحِ أرضنا ومن جرحِ تاريخنا بَعثَ فينا الاضطهادُ حُرِّيَّةَ شهدائنا وقد استوتْ بنا مآثرُها إلى مستقبليّاتِ المَدى واللون في مبتكَراتِ المضمون والشَكل.

بعل

لكنْ، مع ذلك، نَشعر بأنّ حقَّنا محظورٌ علينا، وبأنّ الهيكل وحْده معنا في عزلته وسْطَ الفراغ البَرّيِّ أجيالَ ظمإٍ وجوْع.

بك

مهما يكن مِن أَمرِ الهيكل ومِن أَمرنا فيه، فإنّ لنا بفحوى سمائه وترابه وسائرِ مؤهِّلاته سِفرَ حياة بلا تكرار.

بعل

التكرار... التكرار... آفةُ التكرار. بمرورِ الزمن يستهلكنا التكرار، يُخْلينا التكرار، وإنْ لم يُفْقدنا المقْدرةَ على أنْ نختار ما نريد.

بك

لا غِنى لنا عن أنْ نختار مهما نَلقَ مِن عوائقِ الحظْر المنظَّم.

بعل

مِمَّ نختار؟ أمِن الواقع أم مِن الحُلم فوْق الواقع أو دوْنَ الواقع نختار؟

بك

على مَ التحيُّر؟

بعل

أحلام. كوابيس. جوائحُ قَشر واستثمار. المال، عِنْدَنا، كثير والبؤس أكثرُ. عطشى القناني؛ خمرُها في الرؤوس؛ حياتنا سكرى في جوٍّ اعتقال. أنكون فدَينا الهيكل ليَصير وطنَ سجنٍ كبير؟

بك

يا لرؤيا الليل: حاضرُ الهيكل قَصْرُ بَذخٍ وسْطَ فَقْرٍ حتى القهر! أضريحَ شَعْبٍ غدا هيكلُنا أم قَبْرَ حضارة؟

بعل

لن يحيا عبَثًا هيكلُنا. أنْ يتولاه العَقْل والقلب معًا أو يتداعى بنا فنَزول ونُزيل.

بك

نَزول... نُزيل... كأننا شمشون... بعضٌ مِن شمشون...

بعل

لكنْ بلا دليلة...

بك

دليلة؟ ما علاقتنا بها؟ دَعْ عنّا خبرَها وشمشون، ولنَرجعْ إلى جِدِّيّات الهيكل.

هيكلنا ـ كلُّ هيكل ـ مِن غَيْر ولايةِ العَقْلِ والقَلبِ معًا خطَرُ كيان في اختلالِ نظام.

بعل

الاستئثارُ، ظلمًا وفوضى، مفجِّرُ نقمةٍ حيالَ تراكمِ أزماتٍ على تعسّرِ أحوال. عبادةُ المال كُفْرٌ في كلِّ مَوقف. كم من مسافةٍ، هنا، بين الحقوق والموجبات!

بك

المسافة جدليّةُ إعجازٍ كونيٍّ العِلل والعواقب يتخطّى مَحَلّيّةَ الحقوق والموجبات، وخصوصًا في عصرنا الذي ما ينفكّ يفجأنا بعجائبِ مُحدَثاته.

هبَّ زمانُنا، هذا، الإلكترونيُّ يَعدو على مَدى المكان وكأنه يقصِّر المسافة يكاد يلغيها لفرْطِ ما يقرِّب أبعادَها.

بعل

لئن كانت مُدهِشاتُ المعلوماتيّة، التي نَفذتْ حتى إلى سِرِّنا في عمقِ الهيكل، تبدو كأنها تقصِّرُ وتكاد تلغي مسافةَ الوقت ـ لا مسافةَ المكان ـ بين عالَمٍ ما وعالَمٍ ما آخَر، فإنّها لم تَقدر ولا ادَّعتْ أنّها

تقصّر وتكاد تلغي المسافةَ التاريخيّة بين مُعْظَم عوالمِ الشرق والغرب والجنوب والشمال.

المسافةُ التاريخيّة ـ الأضدادُ لا الأبعاد ـ تلك هي المعْضلة.

بك

مهما يكن مِن تعضُّلِ المسافة، فإنّها ضروريّةُ الأحيان. لولا المسافة لاصطدمتْ أضداد، وفترتْ شوقيّات، وتلاشتْ حيويّاتُ فُضولٍ واستطلاعٍ.

لولا المسافة... لولا المسافة...

بعل

إذا تُختصَر المسافةُ نعاني، في ما نبتلي منها، السلْبيَّ الأشَدَّ. لكنْ، مع ذلك، نبقى نؤْمِن بأصالةِ الحياة إيمانَنا بأنّ في طاقاتِ الوجود ما يَقوى على أسبابِ العدَم.

بك

أجَلْ، نؤْمِن بالحياة وطاقاتها وبسائرِ أشيائها. إلّا أنّنا، مع إيماننا هذا، بَلوْنا حالاتٍ كذْنا نفقد فيها فرَحَ مَغْناه وقد عجزنا أنْ نسيطر على ما أخذنا نستخدم مِن قوًى ينوءُ بها إجمالُ واقعنا. فازددنا احتياجًا إلى أنْ نحتمي مِن غلوِّها ما ازددنا تغلّبًا على المسافة بين معلوم ومجهول. فكان تَغلّبُنا انتصارَ سلبٍ وإيجابٍ في عقْدةِ إمْرٍ معًا.

بعل

هنا بديهيّة مِن بديهيّاتنا المعْضِلة المتوارَثة: إذا تُطْلَق تلك القوى

تُخفِّفُ عنّا مِن جهة، وتُبْهظنا مِن جهة أُخرى، وقد تودي بنا يومًا ما.
وإذا تُكبَح تلك القوى، تُقيِّدُ فيها حُرِّيَّتُنا اختراعًا وصناعةً إلى طُموحِ اكتشاف.

بك

الحرِّيّة، بلا مخاطَرةِ مسؤولةِ الممكنات، حرِّيَّةُ الطريقِ المسدود.

باسمِ المحافَظة والاحتماءِ مما يَشذّ نقعد عن المغامَرة. نحبس الحُرِّيَّة عن أنْ تُجاوز الواقع. الخيالُ ممنوع. مطوَّقُ الرؤيا هو المباح. نتذكَّر ولكنْ في معزل عن المستقبل. لسنا نحلم بالآتي الذي لا يُتوقَّع.

بعل

نتذكَّرُ لكي نَعرف؛ ونَعرفُ لنضطلعَ بما نتذكَّر مِلءَ تفاعُلِ تراثنا وحاضِرنا مستويَين إلى مستقبلِ شأْونا.

لا مفرَّ لنا مِن قدَرِ تراثنا صنْوَ ألوهةٍ قليلًا ما اكترثنا أنْ نلبث فيها. فخرجْنا منها كما يَخرج الفرخُ مِن البيضة وقد نُقرتْ وربما كُسرتْ، فانفرجَ إذ تحرَّرَ مِن حكْمها لم يدرِ أنها مَرجعُ كيانه أصلًا ومستقبلًا.

بك

لكنّه لو بقي فيها لاختنقَ لا مَحالة.

بعل

يا فَرحةَ الفرخ بأوَّلِ طفولته! لا هَمّ. لا مبالاة. براءةُ نشأةٍ لمّا تَعِ نَفْسَها مِثْل فجْرِ الضوءِ والنَسَمِ والزَهَرِ. حتى إذا وافى الثمَرُ، بدأتِ المشكلةُ...

بك

حتميّةُ العَودة ـ عَوْدتِنا ـ إلى شرْعةِ البيضة، تراثِها نَسْلًا عن أُمّةِ سَلَف.

بعل

عِنْدَ عَوْدتنا، هذه، قام قَدَرُ تراثنا يحرِّض عقْلَنا على الإذعان، يوحي إلينا أنّنا، بَعْد طفولةِ التحرّر مِن حُكْمِ البيضة، لم يبقَ في وسعنا أنْ تستمرّ بنا فرْحةُ فرْخنا، لا لداعٍ إلّا لأنّنا ذُرّيّةُ أصْلنا أَرَضِينا أم أَبَينا ذلك.

بك

لمَ قام قدَرُنا يحرِّض عقْلَنا على الاستسلام ما دامت شيمةُ العَقْل هي أنْ يقاوِم؟

بعل

شيمةُ هيكلنا قرْعُ الحُجَّة بالحُجَّة حَبْكَ مَنْطِق في حَبْكِ مَنْطِق. لا انقياد. لا استسلام. أوَّلُ الضَرْب اختبارُنا القوّةَ عقلًا وعَضلًا في ما يوطِّد الإرادة ويؤيِّد حَقَّ المَطالب. فندرك أنّ اليد فوْقَ أداتها، وأنّ العَقْل فوْقَ يده، وندرك، في آخِر الأمر، أنّ لُبَّ العمل هو أنْ نستأهل العمل عزمًا وتخطيطًا ومنجَزاتِ كيان.

بك

أخذتِ الأحوالُ تنجلي هنا: أشدينا إلى أُمّةِ هيكلنا المعروفَ الأَجْزَل، حرَّرْنا الهيكل مِن تقاليدِ استبداد ومِن خرافات وأوهام.

بعل

غير أنّ هيكلنا تهدِّده نقائضُه، عَمَهِيّاتُ الليل.

نقائضُ الهيكل، إذ يتنافى بها الجغرافيا والتاريخ، يتستَّرُ بظلامها جَهْلُ تعصّبيّاتٍ تبغي أنْ تجمِّد كلَّ ما يتحرَّك فينا. فإنْ لم يمتثل ذهبتْ به، فكفَّنته بجنايتها عليه، ثم دَفَنَتْها معه.

بك

موْت. سُكوت. جوٌّ تعتيم وتغييب. لا سؤال. لا عِقاب. نقائضُ الهيكل مزيَّفاتُ أُلوهة تخشى النهار. تَهْرب مِن مَعْنى الشمس.

بعل

على الظلام، حامي الظلم، انتصرْنا. حتى صواعقُه غَلَبْنا لا بسَيفِ الخطاب، ولكنْ بحدِّ العَقْل الذي يولَد مَعْنى شمْسهِ قبْلَ أنْ تَكون؛ أليس «في نصْفِ الليل يولَد نصْفُ النهار»؟

الطبيعةُ، اصطراعَ نهار وليل، سنّةُ حياتنا. إنّها طريقنا الأصعب، طريقنا الأَقرب والأَبعد معاً.

بك

لا يَشغَلُنا ما أَنجزْنا فيها، ولكنْ ما نتوخّى إنجازَه يُشَغِّلنا. الأهمّ، عِنْدَنا، هو الآتي.

بعل

الآتي مع الحاضر؛ والآتي مع الماضي؛ وفي أحيانٍ الآتي ضِدّ

الحاضر؛ والآتي ضِدّ الماضي. إنّ الضِدّ ليس، في كلٍّ حالةٍ، عنصُرَ سَلْب.

الآتي في فَرَح، لا عن شعور بذنْب. فَرَحٍ بمعرفة. معرفة على حركة. حركة إلى سَفَر في رُوحِ المسافة وفي جسدها.

يا لها مِن نشوةِ زواج في هيكلِ ظَفَر!

بك

زَوْجيَّتُنا سيادةٌ ولو في النشوة. المِقودُ بيدِنا أبدًا.

بعل

لِمَن القيادةُ أَلكِ أَمْ لي؟

بك

لا فرْق بَيْننا ما دمنا يدًا بيد. لا ثنائيّة عِنْدَنا، هنا، في هيكلِ الوحْدانيّةِ التي تُصالِحُ كلَّ شيء ويتصالحُ فيها كلُّ الأشياء.

هي النعمة متجسِّدةً في الجوهر الفَرْد. لا ذَكَر. لا أُنثى. لا وثنيّاتُ انقسام؛ بل انضمامُ إيمانيّاتٍ بآيةِ الفَذِّ الأحَد.

بعل

إلّا أنّ المشْكِلة أعْسرُ ممّا تبدو أوّلَ وهْلة. اللماذا، هنا، مشْكِلة. الكيف مشْكِلة. المتى مشْكِلة. الأين مشْكِلة. أربعةُ أسئلة. مشْكِلةٌ واحدة.

بك

أسئلةٌ مكرَّرة. عدْنا إلى التكرار...

بعل

نُمسِكُ عن التكرار إن استطعنا أنْ نجيب عن هذا السؤال: آلإلهُ يَجعل فينا مَعْنى الإنسان أم الإنسانُ يَجعل فينا مَعْنى الإله؟

بك

لسنا ندري، في الحقيقة، لمَ وكيف ومتى وأين يبدأ وينتهي الإلهُ فينا. أليس الأصحّ أنْ نقول بأنّ البدء لا ينتهي أفي كيمياءِ الإلهِ كان أم في كيمياءِ الإنسان؟

بعل

كلُّ شيءٍ ينتهي إذا عرفْنا كيف نغيِّر. أنْ نحرِّر ما نغيِّر لا يَسترقُّنا ما نغيِّر؛ عِنْدَئذ الحياةَ ـ حياتَنا ـ نغيِّر لا مصطلَحاتها فحسْب.

بك

الحياةُ ـ حياتُنا ـ هي بما تحرِّرُ أو بما تَستَرِقُّ، على حسَبِ ما نريدُ بها أو ما نُضطَرُّ إليه فيها.

بعل

حياتُنا ـ طبيعتُنا ـ حرِّيَّةٌ مَرِنةٌ حلمًا وإنجازًا وتَعاطي ذاكرةٍ في ما لا يَموت إلّا ليُبْعَثَ حيًّا.

لو لم يَمُتِ الأحرارُ لم تَحْيَ الحرِّيَّةُ.

بك

إنْ لم تَحْيَ الحرِّيَّةُ...

بعل

يومئذ كم مِن مَغْنويّاتٍ تنهار! كم مِن ديارِ قُلوبٍ تخلو مِن قيامةِ الرجاء، فتُمسي قبورَ ضياع في ليلِ موصولِ الهمومِ بسِفْرِ الرحيل!

بك

لو نذهبُ، في بواطنِ الهيكل وفي ظواهره، إلى حيثُ الوصولُ شمسُ نعيمٍ يضيء سماءَ القبور في بعثِ الحياة المتجدِّدةِ الإشراق! هنالك ما مِن شُغورِ ديار ولا مِن كيانٍ مهجور. الأمورُ، هنالك، تعامُلُ زمنٍ ومكانٍ في ما يسوِّغ مقتضياتِ المسافة التي كلّما امتدَّ رجاؤها طوى مَجاهلَ المُضِلّات يَكشف ما يحقِّق الرؤيا والرؤيةَ في شأْنٍ معًا.

بعل

لعلَّ رأْسَ ما يحقِّق الرؤيا والرؤيةَ هو ضياءُ الصفاء روحًا وجسدًا يتكلّمان لغةَ الحيويّةِ المتعدِّدة الألسنة في ابتكارِ عوالم وتنوّعِ حضارات.

أنْ نرى هو أنْ نصل الإنسانَ بحقيقةِ الحيويّة مِن خلالِ ألوهةِ الإيمان المستقيمِ الفحْوى، الأَخويِّ الكيان. ذلك على رغمِ مِن موانعِ خطإٍ وحرْمانٍ وسائرِ سلبيّاتٍ تزيدنا جوعًا إلى التحرّر والتحرير في أبعادِ الهيكل الناطقِ الحجارة بسعادةِ الزَوْجيّة.

أنْ نرى هو أنْ نُنْطِقَ فنُفَتِّحَ عيْنَ الضرير.

بك

يا لها مِن بلاغةِ حجارةٍ أنطَقتْ فينا عيْنَ الضرير، فمضى يتوكّأُ على قلمِ حُرّيّته وقد ساقه جلّادوه إلى المعتقَل! فصرختِ الحجارةُ قالت للجلّادين: «لِمَ تخافون مِن هذا الضرير؟ ألأنَّ قلمه حَيُّ العَيْن ولو في ظُلمِ الليل؟»

بعل

أيبقى حيًّا القلمُ إلّا أنْ تَجري به، ولو في العمى، اليدُ الحُرّةُ النظرات؟ ماذا يَسْلَم مِن فنِّ القلم إذا شُلَّتْ فيه حركيّةُ الكيان؟ أليس في هذا الفنِّ، ـ هيكلَ ألوهةٍ متجسّدةٍ في زَوْجيَّةِ الحبيبَين، ـ أليس في هذا الفنِّ رجاءُ الصراع الذي نتخطّى به الفنَّ عيْنَه نَطْوي أبعاد الشَكل والمحتوى، فنَخْطى بما في مَعْنى الشمس مِن غِنى فيْضٍ على أجيالِ ممكنات؟

بك

هيكلُنا، وطنَ ألوهةٍ متجسّدة، فنٌّ جهاد. الفنُّ، هنا، جبّارُ بأْس. مغامَرةُ شَجاعة، وإلّا فدوْنَه المنِيَّة. لو تَقَيَّدَ لزالَ. إنّه بنفْسه قاعدةُ نفْسه. لا انطواءَ، لا أَثَرة. إنّه فعلُ الأفعال حُبًّا يُفعِم الوجودَ.

بعل

أَذْكرُ أنّ فنّنا، هذا، انبثقَ في الهيكل يومَ رسمتِ الشمسُ على بعض الأعمدة، هناك، ظلًّا في هيئةِ إنسانٍ أنشأَ يكونُ فيبني. هو إنسانُ الصراع في الشَعْب الذي هبَّ يَرى، فيؤْمِن، فيُبدِع، فيَصنع، ولا يفتأُ يتطلَّع إلى ماورائيّاتِ ذلك جميعًا.

بك

غير أنّ الهيكل، هيكلَ حُبِّنا، ليس شَعْبُه ماورائيَّ التطلُّع إلّا لأنّ في إنسانه، ضريرِنا المفتَّحِ، كيانًا اجتماعيًّا يَجوعُ، مِن خلالِ الآنيِّ، إلى الأزليِّ المؤبَّد.

بعل

سوْفَ يبقى إنسانُنا على تلك المسِيرة ما استمسكْنا بميثاقنا المدَنيِّ المُهَيكَل الذي لا تَثنينا عنه الحوائلُ مهما نكابد في سبيله مِن بعضِ غوائلِ الجغرافيا والتاريخ.

هكذا شأْنُنا في الحياة شمسًا وظلًّا في صوتٍ وصدًى إلى سماء وأرَضين. السِرُّ هو أنْ نتلاقى كلّما نموْنا، فنزداد نموًّا كلّما تَلاقَينا، فنعطي ما لا يتوقَّع أحدٌ أنْ نعطيه إيّاه؛ حتى إذا أَعطيناه إيّاه، بات لا يسعه أنْ يستغني عنه. ذلك كلُّه نؤدِّيه في تحرُّرِ فنٍّ نأتي به أَرْوعَ الأشياء فنقْرنها بأكثرِ المناسبات شيوعًا، ونأتي به أكثرَ الأشياء شيوعًا فنقْرنها بأَرْوعِ المناسبات. فننشئ، في الهيكل، سِيرةَ العمقِ الذي تُرْوينا ينابيعُه وتُضاعِفُ ظمأَنا في وقتٍ معًا.

كلُّ مَرحلةٍ مِن سيرتنا، هذه، ذاتيّةُ ترجمةٍ وفيّةٍ لطبيعتنا على اختلافها فصولًا مِلءَ البواطن والظواهر.

بك

طبيعتُنا، حقيقتُنا في الهيكل، هي أَصْلُ نَصِّنا. وترجماتُنا له، المتعدِّدةُ الألسُن، هي نفحاتُ الخواصِّ التي تولِّدُ فينا تنوُّعَ أعمالٍ كلُّ عملٍ منها امتيازٌ حُرٌّ، مستقلٌّ، غيرُ منعزلٍ عن سواه.

هذا التنوُّع الجامع هو قِوامنا المشترَك. مَلحَمةُ خليقتنا. سِفْرُ تكوينها ومَصيرِها أَبَوين إلى أعقابِ شرقٍ وجنوبٍ وشمالٍ وغربٍ متكاملةٍ في رحابِ الهيكل.

بعل

هيكلُنا، هذا، رمزُ قارّةٍ هي أُمُّ قارّات. أُمّةُ شَعْبٍ فِطْرتُه التغيُّر تطوّرًا، أو تفجّرًا، أو بَيْن بَيْن، أو ذلك بأجمعه في وحدةِ قصْد.

بك

عظمةُ هيكلنا، سعادةُ زَوْجيَّتنا، آيةُ حبّنا هي أنّه مؤسَّس على معطياتِ الإله فينا عَقْلًا وقلبًا في أُسرةِ شَعْبٍ شخصيٍّ الكيان بصيغةِ المفْرَد، وصيغةِ الجَمْع، وصيغةِ منتهى الجموع.

أُسْرتُنا، هذه، نَهضَ شَعْبُها يقاوم طغيانَ كلِّ ضغْطٍ، ضغْطِ التسلّط، وضغْطِ المال، وضغْطِ الجهل والتعصّب، وسائرِ ضروبِ الضغْط والإكراه.

شعبُنا، هذا، علَّمتْه المعرفةُ كيف القيادة. وعلّمتْه الحرّيَّةُ كيف السيادة والانضباط. وعلَّمتْه الحكمةُ كيف يحيا لنفْسه ولآخَره ولغَيْره في هيكلِ حُبٍّ معًا. وعلَّمتْه كثرةُ أمورٍ أُخرى أمورًا أُخرى كثيرة؛ وما تزال تعلّمه فلا يَزال يتعلَّم.

بعل

لكنّ لِدُنيا هيكلنا، في ما تكوَّنَ به وفي ما بُنيَ عليه، قِصّةَ مَشَقّات. إنها قِصّةُ أولئك الذين أَفْنوا أيّامهم يَشيدونه يدأبون فيه ويكدحون كأنّما

الهيكل قد رُصَّ عليهم حجرًا لِصْقَ حجَر، فلم يحرِّرهم العمل ثمّة بل استرقَّهم حتى الممات.

بك

صدقتَ. كم في أهلِ دنيانا هذه، الصغيرة الكبيرة، مِن عُمّالِ مَشَقّات لم يُعْتقهم مِن جَبْريَّتها إلّا ما قضى عليهم فيها، فلم يكن لهم خلاصٌ منها أو يَموتوا!

بعل

مَن لم يموتوا هكذا، أُعدموا شجاعةَ الوجود، فاستسلموا ليأسِ الشعور بسرطانِ مَشَقّات. لكنهم كبتوا شعورَهم، إذ فُرِضَ عليهم أنْ يُقاسوا المسْرحيّة ـ مسْرحيّتَهم ـ التي قام ظالمُهم يمثّلها، فضْلًا تِلْوَ فضْل، وقد زعم أنْ هُم بها في عافية ومسَرَّة وتوفيق. وربما أهدى إليهم برنامجَ المسْرحيّة، مهرجانِ أيّامهم المضيَّعة، يقينًا منه أنّهم، لِشدّةِ إعيائهم، قد عافُوا القراءة، فرحلوا عن دنياهم جثثًا مرهَقَة، مُثقَلةً، محمولةً هي الأثَرُ اليتيمُ الصابرُ على ما ألمَّ بهم مِن دواهي الضغط والإكراه.

بك

صبْرُهم هو الصبْرُ المقهور الذي لم يَبقَ لديه مِن مشروعِ حياة، والصبْرُ الأخرس الذي لم يَبْقَ عِنْدَه مِن كلمة يقولها.

بعل

لكنه ليس بالصبْر الأصمّ. كم سمعَ فاكتشفَ وإنْ لم يقدر أنْ يَقول!

بك

ماذا اكتشف؟

بعل

اكتشفَ تاريخَ سلالته، سلالةِ الدم الواحد على تباينِ العُروق: أنتِ أُمُّ خيرِ ما بالهيكل وأُمُّ شَرٍّ ما بالهيكل؛ وأنا أَبو خيرِ ما بالهيكل وأَبو شَرٍّ ما بالهيكل.

بك

تلك حرِّيَّةُ السلالة أو، في الأَصْوب، حرِّيَّةُ التناسُل...

بعل

مهلًا! الحرِّيَّةُ فوْقَ ذلك. إنّها، ولو في النِسْبيِّ، فعلُ إيمان بالمطْلَق الذي يبني على سويَّةِ الخوارق.

هيكلُ حُبِّنا بناءٌ على خوارق المطْلَق. هنا السببُ والنتيجة متداخلان، شِبْهُ توأمَين متضامنَين لا يميِّز أحدَهما عن الآخَر إلّا ما يميِّز الباني عن المبْنى.

عجبًا لهذه المسْرحيّة التي كاد العامل يختلط فيها بالمعمول، فظُنَّتْ، في أوَّلِ أمْرها، غير قابلةِ التمثيل! ثم كان منها، ومِن سواها، ما صيَّرها واقعيَّةً قابلةً التمثيل.

بك

لِمَ؟ كيف؟

بعل

ذلك لأنّ التمثيل، في مَشاهد المسْرحيّة، ـ مسْرحيّةِ الطغيان، ـ فنونٌ غرائب. فكان مِن أدهى مَواهب الممثِّل أنّه نقلَ إلى المسْرح ـ مسْرحِ الهيكل ـ ما لم يوضَع، في الأساس، لأجْلِ الهيكل نفْسه. عبقريّةُ الممثِّل، هنا، هي أنّه مثَّلَ ما لا يَقبل التمثيل.

بك

أما لهذا التحوُّل أسبابٌ أُخرى؟

بعل

الأظهر أنّ له بضعة أسباب. وربما كان أَولاها بالذكْر هو أنّ التمثيل، في بعضِ أوائله، كان يؤدّى في النصّ ـ الدستورِ ـ أيّامَ كان المسْرحُ تابعاً للنصّ. فكأنّ النصّ كان خشبةَ المسْرح يتجسَّد فيها إذ يؤدّى عليها. ثم حدثَ، في مسْرحيّةِ الطغيان، انفصامٌ عضويٌّ فصَلَ النصَّ عن الخشبة. فبات الشخصُ ـ طاغيةُ النصّ ـ لا النصُّ عَيْنُه، صاحِبَ القَرار.

بك

لِمَ؟ كيف؟

بعل

ذلك لأنّ النصّ، لا الشخص، كان في البدء. ثم اعتلى الشخصُ خشبةَ المسْرح، فسيطرَ على النصّ. أليس مخيفًا أنْ يستولي الممثِّلُ على رُوحِ النصّ؟

بك

لِمَ الخوف ما دمنا بَنَينا الهيكلَ على الزَوجيَّة الحُرَّة، الأبيّة، ولم نستولِ عليه استيلاءَ قهْر واغتصاب؟

لقد نَفَينا عن الهيكل ما ليس مِن مشروعنا في شيء. وكان على رأسِ ما نَفَينا عصاباتُ سوءٍ لم ندرِ أنّ الفساد ربما استوطن طبيعتَنا وأنّ مِن نقائضِ الفضيلة، عِنْدَنا، ما ربما تردّى بقداسةِ يومِ الأحَد.

بعل

نَفَينا عن الهيكل ما قد نَفَينا إذ هيكلُنا مشروعٌ لا غيْر...

بك

كان سهلاً أنْ نخطِّط الهيكل نهندسُه على الورق. لكنْ أنْ يتجسَّدَ الهيكل ينتصبُ في وجهِ الشمس، يخاطبُ الضياءَ، يُشِعُّ مِلءَ الليل، يحيا يَفعلُ: ما أَصعبَ! ما أَصعبَ!

بعل

أُبَّهةُ الهيكل، مشروعَ حِبْرٍ على ورق، فردوسُ أَخْيلةٍ يَحلمُ بها فينا طُموحُ مِثاليّات.

بك

مشروعُنا المُهَيكَلُ نهجُ حقيقةٍ في أشياءِ صواب، ونسْجُ وهْمٍ في أشياءِ خطإٍ.

بعل

هيكلُنا يلتقي في مشروعه، كما قد يلتقي في سواه، الحقيقيُّ

واللاحقيقيّ. إنّه الجدير اللاجدير. تمنّيناه أكثرَ مما بَنَيناه. آمنّا بأنّ الحُبّ هو الباني أوَّلًا وآخِرًا. سلخْنا العُمْرَ، دهْرَ أجيال، نحلم بأنْ نَبْني أحلامنا لعلّها تتحقَّق.

بك

أَرْوعُ هيكلٍ هو ما به تتحقَّق أحلامُ مَن يَبْنيه. الخيالُ، هنا، شجَرةُ مَعرفة، أُمٌّ براعم تُزْهِرُ فتُثْمِرُ ما يَنْبُتُ فيُنْبِتُ.

بعل

هيكلُنا، حياةُ سعادتنا، شجَرة. هنا الحجَرُ نباتٌ، رمزُ المشيئة التي إذ تَبْني، تَغْرسُ، وتَلِدُ ما يَرْزق. يا لها مِن سُلالةِ هندسةٍ فَنَّ بَدْعٍ وصنعٍ! الشجَرةُ أنبَتتْ مَن غَرَسها. سِرُّ عملها دوامُ التعاطي ميلادًا وموتًا وبَعْثَ مَجْد.

بك

ميلادٌ؛ مَوْتٌ؛ بَعْثٌ: تاريخُ دَم.

بعل

لا بل تاريخُ حُلْم؛ أو لا حُلْم، الآن في الأقلّ. لسنا نيامًا. كلُّنا يقظةٌ ولو في الرقاد. تَنامُ العينُ منّا والقلبُ يقظانُ العُمْرِ في دهرِ انتظار.

بك

ما ننتظر؟ مَن ننتظر؟

بعل

لا ننتظرُ شيئًا. لا ننتظرُ أحدًا. لكنْ، مع ذلك، نحسُّ أنَّ كلَّ شيءٍ فينا يَنتظر، وأنّ كلَّ واحد عِنْدَنا يَنتظر. يَنتظر أنْ يَرجع أهْلُنا، وطنُ سجايانا. أَمسينا مِن بَعْدهم حياةً مهجورة. آفاقٌ غريبة اجتذبتْ أهْلَنا. ابتلعتْهم. ضاعوا فيها ـ أو فينا؟ ـ ما نعلَمُ إلى أيٍّ منقلَبٍ انتهوا. لأجْلهم أَحببْنا كثيرًا. مِن أجْلهم حَقدْنا كثيرًا. حُرِمنا أنفُسَنا إذ حُرِمناهم.

بك

الحُبّ والحقد في قَلْبٍ معًا! لا نيأَسْ. ما يَزال عِنْدَنا أجيالُ أَهْل.

بعل

أهْلٌ إلى حين. أجيالٌ إلى حين. ثُم وحْدَنا في وطنٍ يُتْم. الإقامةُ غرْبة. الاغترابُ تجديدُ مُقام في قيامةِ رجاء...

بك

أو في وهْمِ رجاء. حذارِ. حذارِ. في ساعةِ الحقيقة ينكشف الأَمْرُ: إنِ الحرّيَّةُ، والوطنُ الآخَرُ، ومُقامُ الفَرْحة الجديدة، وما إلى ذلك وما عنه إلّا أَخيلةُ كلام.

بعل

حُقٌّ لنا، في ساعةِ الحقيقة، أنْ نعرف الحقَّ الذي قيل لنا إنّه يحرّرنا، حقَّنا وحَقَّ أَهْلنا في النشأة الدنيا وفي ما بَعْدها، فنعرف كيف

نحيا وكيف نموت في سبيلِ هيكلنا، بيتِ سعادتنا، وطنِ زَوْجيَّتنا أُمًّا وأبًا إلى وُلْدٍ وحفداء.

بك

ما وراءَ هذا الغُلوّ؟ أنّى لنا أنْ نعرف الحقَّ؟ أمِنْ أَحدٍ عِنْدَنا يعرف الحقَّ؟

بعل

لستُ أَدري... لستُ أَدري...

بك

ما دمتَ لا تدري، فلماذا تتكلّم على الحقّ؟

بعل

الواقع أنّ أَكثرنا، حين يتكلّم، لا يَعْني تمامَ حقيقةِ ما يقول. ولكنْ، مع ذلك، يبقى أنّ حقيقةَ الكلام، بحسَبِ ما أتمنّى هنا، هي فعلُ بناءٍ، بناءِ هيكلٍ على زَوجيّةٍ أبوَين إلى أعقابِ حرِّيَّةٍ فأعقابِ أعقاب كأنْ لا نهاية للتاريخ.

بك

غير أنّ سلالة الهيكل ربما ساورَها الشعور بأنّ التاريخ، تاريخَها، قد انتهى أو يكاد.

بعل

إذا صَدقَ شعورُها، تَداعى البناءُ عِنْدَها وانطوى النظام. فأَقفرتْ طبيعةُ حياتها، وغَلبتْ عليها أحكامُ شذوذ.

بك

الطبيعة اللاطبيعيّة أُمُّ عِلل، عاقبةُ دمار. يومئذ الحياةُ مصادَفة، مَرْحلةُ عُبور، طارئةٌ بضعةِ آلافِ سنةٍ في جَنْبِ ملايين العصور غَمْريّاتِ ظلام.

بعل

هذه التي ندعوها الحياةَ الطبيعيّة كان يمكنها أنْ تَدوم لو أنّها، حقًّا، القوامُ الأوحد الذي يتولّى نظامَ الجوهرِ والوجودِ متفاعلَين. لكنْ يبدو أنّ هيكلها ـ هيكلَنا ـ لم يؤسَّس على تلك المناعة. فعجزَ أن يصدَّ عنه العدوانيّات التي كرَّت عليه فتكرَّرت، أخارجيّة كانت أَم داخليّة. ذلك وهيكلُ سِيرتنا هو، بفطرةٍ مرتجاةُ، نِسْبيّةُ اتجاهٍ إلى ترقيةِ الحياة كفايةً وأناةً واقعٍ في ما لعلّه يحرّر الإنسانَ عِنْدَنا على شخصيّ الأفراد والجماعات.

بك

غير أنّ هيكلنا اعتمد على مِثاليّاتِ الحرِّيَّة الأفلاطونيّة المجرَّدة إذ أراد أن يتولّى نفْسَه بنفْسه لأجْلِ نَفْسه وآخَرهِ وسِواه، فأصبحتْ ديمقراطيَّتُنا كيانًا معرَّضًا للأخطار. وبَيْنا وجدْنا أنظمةً استبداديّةَ الشمول يخنق طغيانُها الحرِّيَّاتِ في المهد، رأينا هيكلَنا الديمقراطيَّ الأعزل يذود عن نفْسه بتردّدٍ وتخاذلٍ أتاحا لبعضِ الطامعين به أن يَعيثوا فيه وأن يُرهقوه بكُلَفٍ باهظةٍ ناءتْ بها مركَّباتُ نظامه الديمقراطيّ الحُرّ، ـ الحُرّ حتى الضعف والفوضى، ـ كأنّما الحرِّيَّة، هنا، خطرٌ على الحرِّيَّة عَيْنها.

بعل

حضارتنا الديمقراطيّة هي، في تاريخ الهياكل، مَثَلُ الحضارة التي

انقادتْ لبعضِ مَن جاءوا إليها، فأباحتْ لأكثرهم أنْ يغتصبوها يُمعنون فيها تخريبًا وتدميرًا، فما تصدَّتْ لهم ولا ردعتْهم عمّا يبتغون. وذلك أنّها، في محاماتها عن هيكلنا، لا تعوّل، في الأغلب، إلّا على ما قد يسمّى المحبّة الديمقراطيّة. فكادت ديمقراطيَّتُنا تَفْقد الثقةَ بنفْسها؛ وكادت تَفْقد الإيمانَ بقابليّتها للحياة؛ فوهنتْ حتى أوشكتْ أنْ تستسلم للطامعين بها مِن أيّةِ جهةٍ طرأوا.

بك

استسلام... ذلٌّ... انتحار...

بعل

حضارتنا أَكرمُ أصلًا، وأَنْجَبُ أهلًا، وأَمْدى انتشارَ فُروع مِن أنْ تَذلّ فتنتحر وإنْ كانت، في بعضِ مَراحلها، تَسْلكُ وكأنّما هي، على العموم، نفسيّةُ ذلٍّ وانتحارٍ يهيّئان لمن يريدون بها شرًّا أنْ يفعلوا بهيكلنا ما يشاءون.

لكنّ حضارتنا ما تَزال متينةَ الهيكل، أُسسًا وأعمدةً ومنجَزاتٍ إلى أمّهاتِ مستقبل، على رغمِ مِن تفاقم الجوائحِ التي نكَبَتْنا في تاريخنا المتقلّب، الطويل. أمّا هذا الذي نخالُه انهيارًا، فما هو، عِنْدَنا، إلّا أزمة في جملةِ أزمات نؤمّل ألّا تستعصي علينا فيها وسائلُ العلاج.

بك

حضارةُ هيكلنا، داؤنا المحيّر، أُحجيّةُ تناقضٍ صعودًا في هبوط...

بعل

لا نَشخَز. لا نَشْمَتْ. أَليس الأجدرُ أنْ نعالج هذا الداء؟

بك

بديهيٌّ أنّه لولا العلاج لتعطَّلتْ عِنْدَنا ممكناتُ التعافي ـ والصيانةِ ـ نموًّا وتقدُّمًا ورقيًّا، فتعطَّلتْ معها ممكناتُ الحرِّيَّة في مرتجَياتِ غدنا مقترِنًا بإيجابيّاتِ يومنا وماضينا القريب والبعيد.

لكنْ، في بعض المواقف، يبدو هيكلنا وقد كاد يَتيهُ في حرِّيَّةِ نظامه، وفي فوضى نموِّه ورقيِّه. أفأَوْجُ الحرِّيَّة بدءُ انحطاطها بنا؟

بعل

مهما يكن مِن أمْرنا في هذا النحو، فإنّ ديمقراطيَّة هيكلنا تهدِّدها أخطارُ خارجيّاتٍ أكثرَ مما تهدِّدها أخطارٌ داخليّةُ المصادر، على ما في داخليّنا مِن تراكمِ نقائص.

حدودنا المُهَيكَلة، برّانيّةً وجوّانيّةً، حدودٌ مَصونةٌ ما تولّيناها بحقيقةِ التاريخ لا بقوّةِ ضعْفنا أفرادًا وجماعات.

بك

تقصدُ أنّ التاريخ أَفضَلُ ضمانٍ لنا؟

بعل

ذلك هو الأرجح وإنْ خالفتْه ظواهرُ سطحيّات. لو كانت قوّةُ ضعْفنا تَقْدر أنْ تتولى، لانهارَ بنا الهيكلُ قبْلَ نظامه. الهيكلُ والنظامُ، عِنْدَنا، هما اقترانُ حياتنا بحقيقةِ تاريخنا في ما له وفي ما عليه.

بك

الأقوى، هنا، هو الأقوى تاريخًا ما دمتَ - أنتَ الإلهَ - وما دمتُ - أنا المدينةَ - زوْجَين متضامنَين تضامُنَ أعمدةِ الحضارة التي تجاوزُ ما يبدو مِن خارجيِّ الحجَرِ في هيكلنا إلى مَدى تَحْتانيِّه ومَدى فَوْقانيِّه في أبعادِ شأوٍ معًا.

بعل

أَرْوعُ ما بحقيقتنا - نظامِنا في الهيكل - هو أنّنا كلّما نَشدْناها، وكثيرًا ما نَشدْنا، وجدناها على مجرى طبيعتنا. أمّا ما يخالف طبيعتَنا - حقيقةَ تاريخنا - فمقضيٌّ عليه عِنْدَنا. إنّه شيءٌ ميْتٌ: وُلِدَ ميْتًا، وعاش ميْتًا، ومات ميْتًا.

بك

هذا التفاؤل بتاريخنا وبحقيقته هو فعلُ إيمان، نشيدٌ وطنيّ... ولاءٌ لنهجٍ قوامُه استمرارُ عملنا في سبيلِ الهيكل، مع استمرارِ إعادتنا النظرَ في العمل تجديدًا لأدواته، وتوكيدًا لأغراضه، وتجويدًا له على الإجمال والتفصيل. لا عبقريّة، هنا، لا نبوغ، بل إرادةُ جِدٍّ في مَطالبِ اجتهاد.

بعل

مَطالبُ اجتهاد يُعمِّق البصيرة، يوسِّع الأفقَ، ليس به مِن أَمرٍ رهيب. لا غزو، لا احتلال؛ بل سلامُ حرِّيَّة وسلامةُ مُقام في عزِّ الوطن، إنسانِ عَقْلِهِ وقَلْبِهِ شخصيٍّ فَرْد وجمْع. المُقام هويَّةٌ. الهويَّة جنسيّةُ كيان. الكيانُ ضميرُ نظام يحاسِب ويحاسَب.

بك

في عصمةِ هذا النظام، وفي مَنطقِ نغْمته، أنا لكَ مِن غير أنْ ألتزم، حتمًا، كلَّ مَوقفٍ مِن مَواقفك؛ وأنتَ لي مِن غير أنْ تلتزم، حتمًا، كلَّ مَوقف مِن مَواقفي. لا جَبْريّة في نظامنا؛ لا تَبَعيّة؛ لا كلِّيَّة شمول؛ وإنْ يكن بمرتجى نظامنا ميثاقُ وحدةٍ وتوحيد.

بعل

نظامُنا، في تنوّعِ أعماله وفي تعدّدها، خلاصةُ كيانٍ متينِ الأسباب والنتائج. لا يسع العُدْوانَ أنْ يقول: «لستُ في حاجة إلى أنْ أحتلَّ الهيكل ما دام لي بداخله أعوانٌ يُغْنوني عن الاحتلال.»

بك

ربما كان مِن أكثر ما يشجِّع العُدوانَ اعتمادُه على أعوانِ الداخل. المهمُّ هو أنْ نبقي هيكلَنا، ولو في خُطَطِ مؤمَّلاته، بمأمنٍ مِن أعوانِ مَن يبغي بنا شرًّا. رأْسُ ما يحمي هيكلَنا هو أنْ نعزِّز فيه حقيقةَ الإنسان وسائرِ الكائنات ـ حقوقَ الحياة كلِّها وما إليها وما عنها.

بعل

لكنْ، مع بديهيّةِ ذلك، نرى هنا وهناك وهنالك، شعوبًا يتحكَّم فيها العُدْوان، يعزلها، يحبسها عن حقيقتها ـ حقوقِها ـ في التاريخ.

بك

بعصرِنا هذا، عصرِ اللحظة المعلوماتيّة إنباءً وتواصلًا على تَعاقبِ

مشتقّات، أيجوز أوَيمكن أنْ تُخفى الحقيقة ـ حقيقةُ التاريخ وغيرُها من الحقائق ـ على شَعْبٍ ما أو على شعوب؟

بعل

حيالَ هذا الإخفاء الذي نَعدّه آفة مِن أسوإ محاوَلاتِ العصر، نقول بأنّ قُوْتَ قُوَّتنا في الهيكل، داخليّه وخارجيّه، هو أنْ نكشف ونعلن الحقيقة، ـ أيَّة حقيقةٍ كانت، ـ أو ما نحسبه إيّاها، ونأبى أنْ نخفيها على أحد.

بك

أيمكن إخفاءُ الحقيقة كلَّ حين على كلِّ إنسان؟ آفةُ الإخفاء، هذه، محاوَلةٌ نظريّة يكذِّبها عمليُّ الواقع. سيَسمع الأقلّون أو الأكثرون، أو سوف؛ سيبصر الأقلّون أو الأكثرون، أو سوف؛ سيَعلم الأقلّون أو الأكثرون، أو سوف؛ ـ وإنْ لم يتسَنَّ لهم ذلك على الفور.

بعل

محاوَلةُ الإخفاء دليلُ ضعفٍ مُثنًّى القصد: أنْ لا يبقى نظامُنا، في الهيكل، نظامًا ديمقراطيًّا؛ ثم أنْ يتعذَّر على الأنظمة اللاديمقراطيّة، في بعض الهياكل، أنْ تصبح أنظمةً ديمقراطيّة ولو بَعْدَ زمن.

المأثورة الديمقراطيّة المثلى التي ما تزال أجيالُ الهياكل تردِّدها، في بعضِ هذا النحو، هي نصيحةُ ديمُسْتينِس لشَعْبِ أثينة وقد حذَّرهم فيها مِن فيلبُّس المقدونيّ وحرَّضهم على أنْ يستمسكوا بديمقراطيّتهم، فيعجز عنهم العُدْوانُ المقدونيُّ الذي مهما استبدَّ بأثينة وطغى، يَضعف

عمّا لهم بها ما داموا على أصالةِ نظامهم الديمقراطيّ. فكأنّ الديمقراطيّة - ديمقراطيّةَ هيكلنا، مَثلًا - لا تؤخَذ عنوةً واقتدارًا، ولكنْ يمكن أن يستولى عليها بمرسوم...

بك

بمرسوم؟

بعل

مرسوم قد يتردّى بظواهرِ أنْ «لا غالِب فينا ولا مغلوب».

بك

هذا شعارُ بائدٍ عائدٍ. لا غالِب؟ كلُّنا، في الشَعْبِ، مرهَق؛ جُلُّنا، فيه، مغلوب.

إنّه شعارُ مَوقف يخاطر بهيكلنا حاضرًا ومستقبلًا وقِيَمَ تراث. فكيف لا نرفض هذا الشعار؟ لا حَلَّ وسَطٌ في الهيكل كيانَ وطن ومَصيرَ شَعْب.

بعل

هنا بُعْدُ النظر واجبٌ حيويّ. لا نسكتْ عن العُدْوان وإنْ هو حاولَنا على مهل. كلُّ فعْل منه فلنقابلْه بردٍّ عَقْل وإلّا عاث العُدْوانُ في قلبِ الهيكل، مضمونِ أرضه وسمائه، صميمِ شَعْبنا زَوْجَين متآلفَين. وربما هاجمنا العُدْوانُ، فذدْنا عن هيكلنا، فادّعى العُدْوانُ أنّه يذود عن نفْسه منّا وأنّنا نحن المعتدون. متى كان زواجُنا، عهْدُ حُبِّنا، ضَرْبَ عُدْوان؟

بك

ربما عمَدَ العُدْوان إلى حيلة تنحرف بنا عن الحقيقة أو، في الأقلّ، عن حقيقتنا، فلوَّحَ لنا أنْ إذا هو حصَلَ منّا على سلامِ العَهْد الذي يريدنا عليه، كَفَّ عنّا، فصادَقَنا وحالَفَنا.

أمِنْ شيءٍ، هنا، أشَدّ خطراً علينا مِن ذلك إمّا صدَّقْناه فجرينا على مقتضياته المعلَنة والمضمَرة؟

بعل

صبرًا يا حُبّي! صبرًا يا شَعْبي! لا نَشكُّ في فَرَجِ التاريخ بطبيعةِ فصوله المتلاحقة التي تتغيَّر أحوالُها كلَّ التغيّر أو بعضَ التغيّر...

بك

أو لا تتغيَّر! مهما يكن مِن أمرها، فإنّ الصبر نظريًّا مَوقفُ صواب. لكنّ النظريَّ شيء، والعمليَّ شيء آخَر. فلنَذْكرْ ذلك إذ نَحمي هيكلنا حجَرًا فحجَرًا. ولنوقِنْ أنّ مَن يَحْمي نفْسَه ومقدَّساته ليس، كما يتهمه العُدْوانُ، مسبِّبَ نزاع...

بعل

ولنعزِّزْ فينا طاقاتِ الروح والجسد، وخصوصًا روح المقاوَمة وجسدها. إنّ الهيكل القويّ يبقى قويًّا ما عرفَ كيف يتعهد طاقاته وكيف يزكّيها. الهيكلُ، مجرَّدًا منها، جثَّةٌ عارية؛ ثقافةٌ أُمِّيَّةٌ؛ كيانٌ ينقض عدَمُه مسوِّغاتِ وجوده؛ نظامٌ ينظِّم حياةَ رقِّه، مَوْتَ حياته.

السؤال الذي يُقلقنا هو هل نحارب لكي ننجو مِن الرقّ، أم نحتمل الرقَّ لكي ننجو مِن الحرب ـ الحرب التي تَكْسرنا ولو انتصرْنا؟

أَفْجعُ ما بهذا السؤال بعضُ جوابه أنِ اخضَعوا وإلّا قُضيَ عليكم.

بك

ذلك هو أمْرُنا الواقع. واقعُنا متشائم. نحْنُ شهودُه، شهودُ حقيقته؛ لسنا شهودَ زُوْر. الشهادة، هنا، خِدمةُ عَلَم؛ وهي، أحياناً، درْبُ استشهاد.

كلٌّ هيكل يبني، في حدوده، شيئًا مِن تاريخِ العالَم ـ عالَمهِ. كلٌّ هيكل يهدم، في حدوده، شيئًا مِن تاريخِ العالَم ـ عالَمِه.

بعل

لِنفتِّحْ أَعْيُننا فنرى أنّنا ربما جَعلْنا، في تاريخِ هيكلنا، أسبابًا لخرابه. فأبحنا للعُدْوان، في مَراحل مِن سِيرتنا، أنْ تتفشّى بنا عِللُه، بيْنا هو لا يكاد يجيز لنا أنْ نتنفَّس إنْ مررنا، يومًا، ببعضِ سبيله.

بك

هي حرِّيَّتنا تبيح لسوانا ما لا يجيزه لنا. فكأنّ الحرِّيَّة ـ ولا بدّ مِن أنْ نكرِّر ـ هي خطَرٌ علينا في وجهٍ ما؛ وكأنّ اللاحرِّيَّة هي، أيضًا، خطَرٌ علينا في وجهٍ آخَر. فأَين المخرَج؟ وما مَصيرُ هيكلنا وسْطَ التحوّلات التي يتعارض في أحداثها مَعْنى الحرِّيَّة ومَعْنى اللاحرِّيَّة؟ أليس في هذه التحوّلات بؤرُ إيجابٍ لنا وبؤرُ سلبٍ على وحدةِ مَسيرة؟

بعل

حرِّيَّتُنا المُهَيكَلة ربما جاوزتْها التحوّلاتُ المحلّيّة والإقليميّة، فضلًا عن التحوّلات الكونيّةِ العوالم. ميادينُ النشاط، في تنوّعِ قطاعاتنا

الروحيّة والمادّيّة، بات مُعْظَمُها رهين الحركةِ عِبْرِ القارّيّةِ خَطْفَ هنيهة. السرعةُ، ومْضَ صوتٍ وضَوءٍ وما إليهما، غيَّرتْ مُحْدَثاتُها أكثرَ أحوالِ البواطن والظواهر تغييرًا جذريًّا ما ينفكّ يزداد تأثيرُه في روابطِ الزمن بالمكان عامّةً وخاصّةً ـ مِن لحظةِ المَدى أفقيًّا وعموديًّا، إلى آخِر ما هنا وهناك وثمّة. فما كان في نتيجةِ ذلك؟

بك

لَزِمَ عن ذلك، في ما لَزِمَ، أنّ الإنسان، مِن أَصغر الأَصغر فيه إلى أكبر الأكبر، أصبحتْ أبعادُه دوامًا كونيًّا، مباشِرًا، غيْرَ مادّيٍّ ولو في صميمِ الجسد.

بعل

حتى غَوْريّاتُ المادّة صار أَمَدُها أُفقَ روحيّات. حتى التحوّلاتُ غدا صراعُها، في هذا الميدان، حَرْبَ سِلْم.

بك

كيف يسعنا أنْ نَذْكر الحرب، وإنْ سِلْميّة، حيال التقدّم الكونيّ الذي أَمكنه أنْ يَجمع، في لمحةِ ثوانٍ، بين أقاصي الأضداد؟ كيف يسعنا أنْ نَذْكر الموت، فضلًا عن الحرب، في حين أنّ جُلَّ ما حوْلنا براهينُ حياة؟ إنْ وُجدَ زمنٌ يتهيَّأُ لنا فيه أنْ نحيا بسعادة وسلام، فاليومَ مرتجى أوانه ولا ريب.

بعل

لعلّنا في مَطلعِ عهدِ التفاهم، تفاهمِ الإنسان وطاقاته.

بك

إنِ اهتدينا سبيلَنا إلى ذلك التفاهم، خلَّصْنا الهيكل، رمْزَ حياتنا، أَنقذْنا التاريخ.

بعل

لكنْ لنَحذرِ الأقدار. أما نكذِّب أنفُسَنا إنْ صدَّقْنا أنّنا نستطيع أنْ ننقذ التاريخ، أنْ نَغلب رُوْحَ الحرب؟

بك

دَعِ الحربَ وأقدارَها. كفانا ما قاسينا. كفى!

بعل

اطمئنّي. أَغْلقْنا أبوابَ الحرب. ولن نتيح لأحدٍ أنْ يفتحها.

بك

أنتَ متفائل. جِدُّ متفائل. ما يُغلَق يمكن أنْ يُفتَح، ثُم يُغلَق، ثُم يُفتَح، ثُم... ثُم... كأنْ لا نهاية لذلك.

أنْ يكون ما يُشهّي، فتقع الحرب ـ أحيانًا. أنْ تُثْمِر الأرضُ، أنْ تُنتِج المصانعُ، أنْ تزدهر الأعمالُ، أنْ... أنْ... عندئذ تَدقُّ الشهوةُ أبوابَ الحرب. الحربُ غريزة وعقْل. أنا أَتشهّى وأُفكِّر، إذًا أنا أحارب. لا شيء يمنع الحربَ؛ ـ لا شيء مَنعَها إلى اليوم في الأقلّ.

بعل

ربما كان الخوف مِن الحرب هو أَحد الأسباب المرجِّحة التي تمنع الحربَ، أو التي تؤجِّلها في أيسرِ حال.

بك

أتُرانا نحبّ الحربَ عن غيرِ وعيٍ منّا؟

بعل

لـمَ السؤال؟ أخافُ مِن هذا السؤال. أَعترفُ أنّني، في بعض الأحيان، لا أَكرهُ الحربَ...

بك

لِنعترفْ أنّنا، في بعض الأحيان، قد نحبّ الحربَ لا للحرب نفْسها، ولكنْ لأنّها قد تخلِّصنا ممّا هو شرٌّ منها.

بعل

أخافُ مِن هذا الحبّ الإجباريّ، الغريب.

بك

ألا تَعرفُ ما هو أَسوأُ مِن حبّنا للحرب؟

بعل

بَلى: أنْ ننكسر في الحرب.

بك

لا أَعرفُ أنّ بَشَرًا انتصروا في حرب. أعرفُ أنّ منهم مَن فازوا في معركة أو في عدةِ مَعارك. أَعرفُ أنّ الحرب هي الرابحة في النهاية. أَعرفُ أنّ المنتصر الأكبر هو إلهُ الحرب.

بعل

يخيَّل لي، وقد خضْنا موضوع الحرب، أنّنا عُذْنا إلى سجايانا الوثنيّة المتألّهة التي تضحّي بالإنسان فتَذْهبُ بتفاؤلِ الحياة.

بك

أتَحسبُ أنّك إلهٌ وأنتَ في معتركِ هذا الموضوع؟

بعل

لا بل أَشعرُ أنّني دوْنَ الإنسان. لكنّ غريزة السلاح تستيقظ فيّ، كرَّةً مِن بَعْدِ كرَّة، فأتصوَّر أنّي ذاك الذي لا يُغْلَب ولا يَرْحَم، وأنّي أهجمُ أُنازلُ العدوَّ، حتى إذا صرعْتُه فقتلْتُه، ترحَّمتُ عليه وصلَّيتُ على نفْسه لا على جثَّته وحْدها.

بك

ألا تأتينا الرحمةُ إلّا مضرَّجة بدم الضحيّة؟ نحبّ الحربَ إذ نكره الحربَ. نقتل العدوَّ حتى لا تقعَ حربٌ أُخرى، ثم نترحَّم عليه...

بعل

قد نقتل إذ نحبّ.

بك

ما هذا الذي تغيَّرَ في هيكلنا بَعْد ما صلَّينا على جثّةِ العدوّ؟ لمَ نجد أنّ كلَّ شيء عِنْدَنا قد تغيَّرَ؟ وماذا حملَ إلينا دخولُ العُدْوان في أثنائنا، حُرُماتِنا المُهَيكَلة؟

بعل

انظري، يا حبيبتي، إلى شَعْبنا ـ زواجِنا المدَنيِّ المُهَيكَل ـ تدركي حقيقةَ ما نحْنُ فيه: زواجُنا هو ميثاقُ النعمة التي تَمسَحُ الجرحَ تُسامِحُ كأنْ لم يكن مِن حرب ولا عُدْوان.

بك

ما مَعْنى هذا الكلام؟ أكادُ أَفُورُ مِن برودةِ أعصابك! أكادُ أَثُورُ مِن رباطةِ جأشك! أَبنعيمِ زواجنا تتغنّى ونحْنُ في جحيمِ الصراع؟

بعل

لا سلاحَ أَمضى مِن سَيفِ السلام في حربٍ تحوِّلُ القاتلَ بَطلًا، والبَطلَ شهيدًا، والشهيدَ مَلاكَ حُبّ.

بك

أَعرِفُ ذلك حقَّ المعرفة. أَعرِفُ اصطلاحاتِ الحرب، وحُجَجَ الغالب والمغلوب، مع اجتهاداتِ البطولة والاستشهاد، إلى آخِرِ المعزوفة. فهل مِن بَعْدها إلّا خرابُ الهيكل؟

بعل

مهلًا! الخرابُ أساسُ العمران. شرقًا خَرَبتُ فأَخضعتُ. شمالًا خَرَبتُ فأَخضعتُ. جنوبًا خَرَبتُ فأَخضعتُ. غربًا خَرَبتُ فأَخضعتُ.

يا له مِن انتصار، إلى انتصار، في انتصار، على انتصار!

بك

لكنْ، مع ذلك كلِّه، ألا ترى أَننا خَسرْنا؟

بعل

أَشعرُ كأنّي فقأتُ عيني إذ كسرتُ المرآة التي استعرضتُ فيها تاريخ انتصاراتي مِن القِدَم إلى اليوم.

بك

عجبًا لرؤى الحرب كيفَ تختلط، عِنْدَنا، بذكرياتِ الحرب، فنتمرَّس بما أَضحى لا يُرى إلّا بالصورة دوْنَ الفعل!

بعل

يَظهر أنّ أنسباءنا السالفين، آلهةَ الهياكل، ـ الآلهة التي كانت تفترس أولادَها إنْ لم تجدْ سواهم لتفترسَ، ـ يَظهر أنّ أنسباءنا أولئك ارتدّوا بنا إلى أناشيدِ الحرب، لعبةِ الدهر في اصطكاكِ المَصالح واصطراعِ الشهوات.

بك

لمَ أناشيدُ الحرب؟ ألسنا في ما هو أَشَدُّ إلحاحًا علينا مِن التغنّي بصناعةِ الموت؟

بعل

«الحربُ أوَّلُها كلام.» هكذا قيل. هكذا قد يُقال إلى يومنا في الأقلّ.

الآلهةُ، أَنسباؤنا السالفون، لم يخفَ عليها أنّ مِن شَرِّ ما يُغضِب السلاحَ هو أنْ تُطعَن كرامتُه فتُثارَ حميّتُه، في وجهِ العموم. فإنْ تُرِكَ السلاحُ يقارعُ السلاحَ، كان مَعْنى ذلك، في بعضِ الأرجح، قرْبَ انتهاءِ

القتال. لكنْ هيهات. وكثيرًا ما شابةَ ابتداءُ النزاع مباراةً في الخطابة؛ حتى إذا جاشت حمّى الفصاحةِ والبلاغةِ وسائرِ المنبريّات في حملاتٍ إعلاميّة منظَّمةِ الصدق والكذب، سادَ جوُّ الحرب، فجاءَ دَورُ التراشقِ وحوارِ الصواريخ. فكان مَعْنى ذلك، في بعضِ الأرجح، تفاقُمَ الأمور وامتدادَ الصراع.

بك

هو جنونُ الحرب!

بعل

مَنْطِقها...

بك

لا بل جنونُها. غير أنّ لهذا الجنون مَنطِقَ وقتٍ يُتَّفَق فيه على هدنة تحدَّدُ مُدَّتُها وفقًا لمقتضياتٍ عمليّةٍ كدفنِ الجثث، وإحصاءِ الإصابات، وإعادةِ تنظيمِ الصفوف، إلخ... وذلك إضافةً إلى مقتضياتٍ أمنيَّةٍ بحتٍ.

بعل

أَفْهمُ حقيقةَ ما قد يَعْني وقفُ القتال، ولو إلى حين، عِنْدَ الذين مضتْ عليهم أَشهرٌ وهم يحاربون بلا هوادة. إنّ هذا الوقت لا يقتصر عِنْدَهم على استعادةِ الأنفاس والتأهّبِ لمعركة أو لمعارك مُقبلة؛ ولكنّه، فوْق ذلك، قد يَعْني الإقرارَ بعبثيّةِ الحرب؛ وقد يَعْني، أيضًا، إتاحةَ الفرصة لإطفاءِ الحريق وإنْ في الظاهر.

بك

ما نفعُ الظاهر إذا كان الباطنُ أجيالَ نار؟

بعل

ما نفعُ السلام إذا الهيكل هدمتْه الحرب؟

بك

إنّ هدْمَ هيكلنا لا يَهدم تاريخَه، مَقامَنا، عِنْدَ الأمم؛ ولا يُفْقده حقَّه، حقَّنا، في كرامةِ الكيان.

بعل

الحقُّ أقدَمُ مدرسةٍ بين مدارسِ الخيال. الحقُّ لا تعترف به سياسةُ العلوم الصحيحة ولا تنطبق عليه قواعدُ حسابها. آيةُ حقِّنا ـ قوّتُه وضعْفُه معًا ـ هي أنه سليلُ حقيقتنا، لا لَقِيطُ الأمرِ المفروضِ الواقع.

بك

بديهيٌّ أنّ حقيقتنا ليست واقعَنا المفروض. لكنّها تعترف به وإنْ أنكرَها في أكثرِ الأحوال.

بعل

حيال هذا الواقع، لا حياة لنا في الحقّ، ولا حياة لنا في سِواه. لو نَرحلُ عنه على أنْ نبقى وإيّاه!

بك

كيف؟ أفالمُحالَ نتمنّى؟

بعل

حيال مَوقفنا، المُحالُ هو المنقِذ.

بك

المُحال، هنا، هو الحُبّ. والحُبُّ، عِنْدَنا، قبْلَ الحرب.

بعل

الحُبّ حربٌ بلا حرب. حربٌ ليس كمثْلها حرب.

بك

ابتدأتُ أكتنهُ فحْوى كلامك: الحربُ حُبًّا ضمانُ المستقبل، لا ضمان الماضي والحاضر وحْدهما ـ مستقبلِ الفرد والجماعة شَعْبَ وطنٍ وأُمّةٍ فأُسرةِ أُمَم.

بعل

أنْ يُبنى هيكلُنا ـ هيكلُ المستقبل، لا هيكلُ الماضي والحاضر وحْدهما ـ على الحرب حُبًّا، ما ذلك بالشيء المُحال إذا سلكْنا سلوكَ الأزواج الذين يعرفون كيف يتحرَّرون مِن عُقَدِ نَفْعيّاتِ النكاحِ والهَجْرِ والطلاقِ في صراحةِ السُبُلِ وتنوّعِ الميادين.

بك

أنْ نؤْمِن بأنّ حُبَّنا هو حربُنا اليوميّة الدائمة، ذلك خلاصُنا وخلاصُ الهيكل بنا وفينا.

بعل

أيكفي أنْ نؤْمِن وحدنا؟ لو يؤْمِن معنا سوانا فضلًا عن الآخَرين، فيشملَ إيمانُنا، هذا، كُلِّيَّةَ فعْلِ الإيمان.

بك

أخشى ألّا يَقْبلنا الآخَرون ولا سِوانا.

بعل

أيَسَعهم ألّا يَقْبلوا الحُبّ؟ إنّ حُبَّنا ـ حَزْبَنا ـ لَحقٌّ بيِّنٌ، عميم.

بك

كيف يَبينُ ويَعمُّ حُبُّنا ما دام فينا مَن لا يَقْبلونه؟

بعل

طويتُ السنين أسائلُ نفْسي أفكِّر في الذين يَقْبلون حُبَّنا ـ حقًّا ـ وفي الذين لا يَقْبلونه. القابلون، في رأينا، هُم نَعَم حياتنا؛ واللاقابلون، في رأينا، هُم كَلّا الحياة. أولئك أبطالُ المسرحيّة، سِيرتِنا إيجابًا في أصالة؛ وهؤلاء، سلبًا على زيْف، هُم الممثِّلون.

بك

ليست مسرحيّةً المسرحيّةُ بلا أبطال. وليست مسرحيّةً المسرحيّةُ بلا ممثِّلين.

بعل

تريدين أنّ الأصالة، بطولةً، وأنّ الزيْف، تمثيلًا، يتوازيان في سِيرةِ كلِّ حال؟

بك

بل في سِيَرِ مُعْظَمِ الأحوال. طبيعةُ الهيكل مِن طبيعةِ البشَر. هيكلُنا مِن روحنا ومِن جسدنا، لا مِن مَعْشَرِ الحجَر إلّا في ظواهرِ القشور.

بعل

يساورني، في أحيان، شعورٌ بالاحتقار. أَحتقرُ نفسي. أَحتقركِ. أحتقرُ غيْرَنا والآخَرين.

بك

ألا ترى أنّ شعورك، هذا، ـ شعورَنا ـ يساوينا بغيْرنا وبالآخَرين إيجابًا في أصالة وسلبًا على زيْف؟

بعل

بهذه المساواة نَرْحم الآخَرين، ونَرْحم غيْرَنا؛ وفي النهاية نَرْحم أنفُسَنا. صرْنا مِثْلَ بساطِ الرحمة!

بك

صرْنا سُخْرةً...

بعل

اخفضي صوتك! اسحبي كلامَك لئلا يسمعك غيْرُنا والآخَرون!

بك

المعذرة. سحبتُ كلامي...

بعل

أَنقذتِ صِيتَنا. صنتِ كرامةَ البطولة.

بك

أهذه متانةُ أَعمدتنا، جبابرةِ الهيكل، أبطالِنا؟ ألَفْظةٌ واحدةٌ سُخْرةً تُزعزعُ فينا كيانَ الحُبّ؟

بعل

يُخيَّل إليّ أنّ الذين لا يرون في الدنيا إلّا الحُبَّ ليسوا، على العموم، أقلَّ غلوًّا من الذين لا يرون في الدنيا مِن حبٍّ أبدًا.

بك

هذا ما قالت به شريعةُ الآلهة قبْلَ ميلادِ الحُبّ، عهدِ الفِدى.

بعل

لكنّ الآلهة ليست معصومة. إنّها تُخْطئ وتَخْطأُ. ذلك قدَرُها وقَدَرُ أجيالنا فيها أفرادًا وجموعًا...

بك

والقدَرُ اختارَنا هذه المرّة. اختارَ هيكلَنا دوْن سائرِ الهياكل.

بعل

القدَرُ أقدارٌ لا قدَرٌ واحد، ـ أقدارٌ متعاقبةُ الأدوار. لكلٍّ هيكلٍ قدَرُه، ودَوْرُ أبطاله، ودَوْرُ ممثّليه المسرحيّين. لا هيكل بلا مسرحيّة؛ لا مسرحيّة فيه بلا ممثّليها. لكنْ، في اللحظة عيْنِها، لا هيكل بلا بطولةِ رَبٍّ وربَّةٍ في سِرِّ زواج. لولا هذا السِرّ لكانت أرضُنا ـ أرضُ هيكلنا ـ أرضَ عداوة.

بك

لمَ العداوة؟ كفانا! كفى!

بعل

مهلًا. صَبْرًا. لا عداوة حوْلَنا إلّا عِنْدَ الذين يحقدون علينا ويطمعون بنا. الأهمُّ، هنا، هو أنْ نحْمي الهيكل مِن جوائحِ الحقد والطمع، وخصوصًا أنّ هيكلنا اشتهر بأمّهاتِ القِيَم حُبًّا إلى معرفة إلى مبتكِراتِ جمال.

بك

غير أنّ القِيَمَ، على جلالتها، لا تَقْدر وحْدها أنْ تَحْمينا. لو نجتنبُ ما يوهنُ مناعتَنا ويلاشي نضالَنا؛ ذلك، في أَوّلِ الشأن، حصْنُ حِمانا، على أنْ توطِّده محرِّضاتُ عزائم ومشجِّعاتُ مَناهج في منجَزاتِ أعمال.

بعل

لكنّ واقعَ الأمر يتخطّانا، والقَدَرَ يتحدّانا في صميمِ الهيكل. قرأتُ بكفِّ القَدَرِ، كتابهِ، ما تَحملُ غوائلُ الحقد والطمع وقد استشْرتْ في مَدى البرّ والبحر والجوّ تُفجِّر مَشارق ومَغارب. فكان، في ما كان، أنّ الحروب، في بعض مِن هنا وهناك وهنالك، صراعُ هياكل تُبْنى على أنقاضِ هياكل، وأنّ أُسَرَ قبائل ترثُها أُسَرُ قبائل لم نكد نسمع بها مِن قبْل. وكان أيضًا، في ما كان، مَغانمُ حرب، ومَغانمُ سِلْم، وما بيْنهما مِن ألوانِ مَغانم.

بك

مَغانم؟ إذًا لا نيأسْ!

بعل

مَغانم. فلنيأسْ! مَغانم وسْطَ أشْلاءٍ في خرائبِ ضياعٍ، أشباهِ جذوعٍ نِصْفِ ميْتة، ـ وتفاؤلًا نِصْفِ حيّة. ذلك خَطْفُ مَشهدٍ مِن تاريخِ جرحنا الذي ما تنفكّ فصولُه تتكرَّر تأبى عليه أنْ يندمل وقد وجدتْ في اعتلاله عِلّةً لمغانم.

بك

جرحُنا تاريخيًّا أزمةُ كيان يتنازعه النقيضان: البناءُ واللابناء. تلك مشكلتنا، ههنا. ليس بناءً أنْ نؤسِّسَ، ونرصفَ، ونرفعَ الأعمدة إلّا إذا جعلْنا الإنسانَ في الأساس، والإنسانَ في الرصْف، والإنسانَ في كلِّ عمود. الهيكل بدون الإنسان أَعمدة لا عماد لها.

بعل

البناء... ووهْمُ البناء...

بك

فما الحَلّ؟

بعل

لعلَّ مشروعَ الحلِّ إنسانٌ متحرِّر، أبَديُّ الجوهر، آنيُّ الوجود، يعرف كيف التمرّس بالآلة العجيبة ـ الآلة الروحيَّة والمادِّيَّة ـ التي اسمُها الحياة. إنسانُ الوقتيِّ الدائمِ حركةً ليس لها مَدًى نهائيُّ الحدود.

بك

إنسانٌ، كمثْلِ هذا، إنّه سليلُ زواجٍ زمنيٍّ لا تعترف به سماءُ الآلهة.

بعل

مرارًا تركتْنا الآلهة، تخلّتْ عن هيكلنا. فاضطربنا مرارًا في شريعةِ غاب. فخانَنا الهيكل وخنّاه مرارًا.

بك

هذه الخيانة المتبادَلة هي ثمرةُ بعضِ الثوريّات التي اعتنقناها اعتناقًا حَرْفيًّا، فتحجّرتْ علينا، فتحجّرْنا فيها كأنّنا مَدافنُ ذكريات.

بعل

مَدافنُ عقائد ماتت ـ كما وُلدتْ ـ في إمْرِ شذوذ. عقائد لا حَقَّ لها ولا حَقَّ بها، ولكنْ عليها بعضُ الحقّ أو كلُّ الحقّ.

بك

هنا تتداعى فينا مركّباتُ السؤال البديهيّ، المتوارَث: لمَ الوجود بدلًا مِن العدم؟ لمَ السُّلطة في الهيكل بدلًا مِن اللاسُلطة؟ وبالتالي لمَ لا نرى، إلّا في النذْر، مجتمعاتٍ هيكليّةً مبنيّةً على مَعاني صيغةِ **لا** بدلًا مِن معاني صيغةِ **نعم**؟

بعل

إذا طافت بنا الذاكرة في مَدافنِ العقائد التي انتشرتْ ـ وطُويتْ ـ في كثير مِن هياكلِ العهود، شهدْنا المسرحيّة المتباينة الاتجاهات. فهُنا الاتجاهُ الغاشم الذي يتقن صناعةَ التسلّط والتخدير، يبغي أنْ يَحْكم شَعْبَ نِيام. وهناك الاتجاهُ المذعِن، اللاواعي بوعيٍ، الأداةُ الطيّعة في

قبضةِ التسلّط والاستبداد. وثمّةَ الاتجاهُ العاصي الذي يهبّ، يَشبّ، يجلو عن عهْدهِ احتلالَ الأوهام، يُرسي الهيكلَ في حقيقةِ تاريخه، يؤمن بأنّ الشَعْب الحيَّ، الأبيَّ، الواعي قلّما يُستعبَد، وقلّما ينقاد، وإنْ لم يبقَ - إلى حين - شَعْبَ فرَح.

بك

الهيكلُ - هيكلُنا - لا ينقاد عفْوًا شَعْبُه إلّا للفرَح المحرِّر.

بعل

الاتجاهُ العاصي قد يَرْسفُ شَعْبُه في القيود إلى وقتٍ ما؛ ثم يَقوم يفكّها عنه، يحطّمها، ما لم تخدِّره قوى الأوهام المحتلّة.

بك

تقصد أنّ الهيكل، الذي تحتلّه الأوهام فلا تزول عنه، هو الهيكل الذي يُغْضي شعْبُه على الاحتلال؟

بعل

ذلك ممّا أَقصدُ لستُ أَجهلُ أنّ حُكمَ الأوهام، المحتلَّ، المغتصِبَ، ذو كيان بالقوّة وبالفعل.

بك

لِمَ لا نفتأ نَذْكر احتلال الأوهام؟

بعل

أيسعنا ألّا نَذْكر الاحتلال وقد جَثمَ علينا، فسيطرَ على إرادةِ الحياة وحَقِّ القرار، فلم يَكدْ يَسلم عِنْدَنا شيء؟

بك

ما سَلِمَ عِنْدَنا، في مَشقَّةِ الخرائب، هو رفضُنا للاغتصاب، احتلالِ الأوهام، في ما يَنهض بشخصيِّنا لعلَّه يحرِّرنا أفرادًا وجموعًا، مِلءَ البواطن والظواهر، في مَدى أبعادِ الطُموح.

بعل

قد يكون في ذلك ابتسارُ تفاؤل إذ لم نَنهض بَعْد. جُلُّ ما في الأمر، هنا، هو أنّنا ابتدأنا نصحو، وربما تَوقَّفنا عن الهبوط.

بك

قد يكون في ذلك مَطلعُ تفاؤل.

بعل

لا يكفي أنْ نتوقَّف عن الهبوط فنتفاءل. الأَولى أنْ نَقوم نريد التعالي. هيكلُنا لا يتجه عملُه إلى الأسفَل إلّا في مراحلِ التأسيس. ثم نستوي بالعمل ـ ولو تدريجًا ـ إلى شأْوه الأسمى.

بك

لكنْ، ما دمنا في حُكمِ احتلال يغتصب تاريخَنا سِرًّا وجهرًا، أنستطيع أنْ نقول بأنّ غدَنا سيكون أفضلَ مِن يومنا؟

بعل

الاغتصاب أقوى مِن التاريخ ـ أقوى إلى حين. والاغتصاب أقوى ـ إلى حين ـ مِن ثقافةِ الحضارة التي تكوِّن، في مَذْهبنا، مَغنى كلِّ شيء.

بك

تلك مَقولةُ المَنْطِق. بَيْدَ أنّنا في جدلِ روحيّاتٍ وزمنيّاتٍ مزمنٍ نخشى أنْ يبقي هيكلَنا مجتَمعاتِ فوارق.

بعل

ذلك واقعُ الشأن عِنْدَنا وقد عانيْنا تقلُّبَ تاريخنا جيلًا فجيلًا، فاستنفدْنا أغلبَ طاقاتنا نبْني الهيكل، ثم نهْدمه، ثم نعود إلى البناء لسنا نكرِّر. فتبيَّنَ لنا أنّ عملَنا ـ حرِّيَّتنا ـ لا يكون إلّا إذا بَنَينا، على ما هَدمْنا، هيكلًا هو في دوامِ حاجة إلى أنْ نَبْنيه مِن جديد وإنْ بدا ثابتًا ثباتَ الأبد.

بك

بجهدِ العُمرِ، جيلًا فجيلًا، بَنَينا، إذ فدَينا، حرِّيَّةَ الهيكل ـ عَمَلَنا فيه ـ نقاوم ظلمًا ربما أكرهَنا على أنْ نعترف بأنّنا لا أخطار علينا ما استوطنتْنا حمايتُه لنا في مُعْظَمِ الأمور.

بعل

ما مَعْنى الاعتراف الذي انتزعه منّا الظلم ونحْن في التعذيب؟

بك

مَعْناه، في الحقيقة، هو أنّ الظلم يكذِّب نفْسَه في هيكلنا الذي ربما تأزَّمتْ أحوالُه إنْ جلا عنّا مَن اضطرَّنا إليهم استئثارُ سِواهم بنا. تلك شرعيّةُ المغتصِب الذي لا يَبلغ سمْعَه إلّا أصواتُ مؤيِّديه ـ مؤيِّديه جبرًا أو عن سوءِ اختيار.

بعل

الظلم السيِّدُ هو على حقٍّ ما وجَدَ مرتزِقةً يسوِّغونه يَدْعون له ويبوِّقون.

بك

التمرّد، يومئذ، والعصيان والثورة أضغاثُ مُحال.

بعل

لا عهْد بلا سيِّد. لا معاهَدة بلا سيادة.

بك

ما وراءَ ذلك؟ أَلُغْزٌ؟ لستُ أَفهمُ. أمعضلة؟ لا نستطيع؛ نحْن في القَيد.

بعل

لغْزُنا معضلةٌ لغويّةُ الحبائل كأنّ بَيْن السيِّد والمرتزِقة شبْهَ ميثاق، مرسومَ استيلاءٍ باللّغة على الإنسان، حَرَمِ الكلمة، حضارةِ هيكلنا، رأسمالِنا روحًا ومادّة.

بك

لكنّ الكلمة، هنا، أُمُّ اللّغة؛ وحرِّيَّةَ الكلمة حياةُ اللّغة، ثقافتُها، إنسانُها، فحْوى الكيان. ذلك يَعْلمه مغتصِبو الهيكل؛ ذلك يتعلَّمه المغتصَبون.

بعل

دَوْرُ اللّغة في حضارةِ الكلمة، ـ أُمِّ اللّغة، ـ وفي ثقافةِ الهيكل إنما هو الدَوْرُ الإلهُ، السيِّدُ.

الإله، وحْده، يقول ما يكون؛ والخَلْقُ في الهيكل يردِّدون ما يقول.

بك

اللّغة إنّها عاصمةُ الهيكل، حاضرةُ الوطن، هويَّةُ الإنسان. لغةٌ واحدة شَعْبٌ واحد. كلمةٌ واحدة سيِّدٌ واحد. بَيْدَ أنّ ذلك حُكمٌ أعْزَبُ. سيرتُنا عهْدُ زواج.

بعل

حُكمٌ أعْزَبُ تندلع بأنانيَّته ثورةُ ثقافة لا تجدُ، مِن بَعْدِ اغترابِ التعدُّد، ما تلتهم إلّا نفسها، وقد غاب عنها أنّ قمْعَها إحياءَ اللّغة وأنّ اضطهادَها رُوْحَ الكلمة يبعثان مقاومَةً تُلهبُ التاريخ ـ تاريخَ الهيكل ـ تطْلبُ التغيير أجيالًا وأشكالًا.

بك

هكذا يتفجَّر الصراع؛ بنفْسه وبالآخَرين وبغيْره يتفجَّر لا يردعه أحد ـ لا السيِّد ولا أجهزة السيِّد.

بعل

هكذا لا يبقى الإلهُ السيِّدُ هو الأمر الواقع، بل يَصير الأمرُ الواقعُ هو الإله السيِّد؛ ولا يلبث طويلًا حتى يَصير أمورًا واقعة كثيرة. فما هذا الذي تَكْثرُ عِنْدَنا أمورُ واقعه؟

بك

يا للسؤال المركَّب! إنّه يخيف السيِّد؛ إنّه يخيف المَسود. كلُّ أمرٍ واقعُ اجتياح في واقعِ اغتيال. لا نجاة لأحد جائرًا كان أو مظلومًا. الجميع سواسية على أخطارِ المَهاوي كأنّ الجميع انهيار.

بعل

الغريب هو أنّ واقع الأمر، الكثيرَ أمورَ واقع، الرهيبَ عِللًا ونتائج، هو، في القاموس المعتمَدِ، اصطلاحٌ متداوَل وإنْ بحذر وارتياب. لكنْ، مع ذلك، يُحتفى به في مهرجانِ مواسم وأعياد.

بك

حذرٌ، ارتياب، مهرجان. ثلاثة في واحد إشكالًا وغموضًا. هل عِنْدَكَ مِن تفسير؟

بعل

هو القَدرُ، الذي يتعذَّر تفسيرُه، يتردّى بالأمر الواقع؛ القدَرُ المفْرَدُ جَمْعُه، العامُّ خاصُّه، لا أيّ قدَرٍ كان. ههنا ما مِن شيء ملموس، بل الشأن تجريديٌّ لخَلْقِ حاجةٍ لا مِن أجْلِ تثمير.

بك

أيّة حاجة؟ أيّ تثمير؟

بعل

حاجةٌ إلى مستحيل. تثميرُ نِيَّتُه استثمارُ ما لم يبقَ له من حقيقةِ وجود، كأنّما الهيكل عبثيّةُ نظام في عدَميّةِ كيان.

بك

لكنْ، مع ذلك، نشعر بأنّ حُبَّنا هو الأقوى إذ نحن معًا.

بعل

أجَلْ معًا. فما وراءَ المعيّة؟

بك

مِلءُ اتحاد...

بعل

حافظةً، فذاكرةً، فحضورًا...

بك

فمَعْنى تاريخ.

بعل

الهيكل عَقِبُ تاريخ؛ وإلّا فالهيكل، على جلالته، فصاحةٌ لفظيّةُ المضمون.

بك

لا هيكل بلا حاضرةِ وطن؛ لا حاضرة بلا حضارةِ كيان.

بعل

التاريخ ـ تاريخُ هيكلنا ـ ذاكِرتُنا المستقبليّةُ المَدى حبًّا فزواجًا فأُسْرةَ سلالة. العَقِبُ هو السِرّ، سِرُّ والدَيه، في ما ينشئ الحضارة، ويشيِّد الحاضرة، ويؤدّي مهمّةَ الحضور بَشَرًا وإنجازًا.

بك

إلى العمل، على الفور. إنّما الإرجاء قتلُ وقت، شِبْهُ إجرام. إنّ العمل ولَدُ لحظتنا، ساعاتيُّ تاريخنا. يقدِّم حياتنا، أو يؤخِّرها، فتجري على نظامه. لا مصادَفة هنا؛ كلٌّ شيء فبتصميم وتوقيت. علاقتُنا بالزمن نتيجةٌ للعلاقة بكيفَ يمرُّ الزمنُ بنا في ما لنا منه وفي ما علينا له.

بعل

هذه العلاقة نهجُ دِقَّة في حسابِ مَرحلة فمَرحلة إلى مَنطقِ تاريخ هو بنفْسه ذاكرةُ نفْسه.

بك

ذاكرة لا تكرِّر ولا تجترّ، تتّجه إلى الأمام، تكاد تَسْبقُ المستقبل في انفتاح ينجّيها مِن الآليّة التي ليس لها شخصيّةُ إرادة.

بعل

لا شخصيّة إرادة؟ إذًا لا مَعْنى. في حين أنّ التاريخ مَعْنى إيجاب، أو مَعْنى سلب، أو، بالأكثر، كلا المعْنَيين. ذلك في بديهيٍّ تمرُّسنا الزوجيِّ المُهيكَل، دستورِنا غيْرِ المكتوب، قدَرِ سيرتنا المؤسَّسة على طبيعةِ جغرافيتنا وتاريخنا.

بك

لكنّ عالَمنا في هيكلِ يومنا ـ عالَمنا الصغيرَ، الكبيرَ، ـ بات قدَرُه لا يلتزم الجغرافيةَ والتاريخَ إلّا على أنّهما لأجْلِ التغيير ولو غَصْبًا. عالَمنا، هذا، أخذَ قدَرُه يعدو على الزمن منّا وعلى المكان، تاريخًا وجغرافية،

وقد ابتغى أنْ يَحرم هيكلَنا حقَّه ـ حقَّنا ـ في حرِّيَّة القرار. فأضحى القرارُ، عِنْدَنا، ممنوعًا ما لم يفقد الهيكلُ ذاكِرتَه ـ ذاكِرتَنا ـ التاريخيّة فضلًا عن ذاكِرَته ـ ذاكِرَتنا ـ الجغرافيّة.

بعل

حينئذ يفقد الهيكلُ مسوِّغاتِ وجوده في تراثِ يومه وغدِه. فنصبح، نحن الزوجَين، أداةَ الوجود لا فحْوى غايته، نمثِّلُ مسْرحيَّةَ سِفْرِ عدَمٍ لا ينتهي تكوينُه...

بك

كأنّ مسْرحيَّتنا، هذه، تتوالد فصولُها في ضياعِ مكان وزمن يَطويهما فعلُ جغرافية وتاريخ...

بعل

وكأنّ مَصيرنا في الهيكل رهينُ جغرافية وتاريخ يرفضهما كثيرٌ مِن عالَمنا المعاصر...

بك

يرفضهما لأنّه يرفض الطبيعة أو، في الأقلّ، يرفض طبيعتنا إذ يُنْكرها؛ حتى إذا قاومتْه قضى عليها.

بعل

أو حَسِبَ أنّه قضى عليها. لكنّ الطبيعة لها، في النهاية، فصلُ الجواب مهما اعترى الطبيعةَ مِن دواهي تعسُّف وعُدْوان.

بك

هنا النهاية وهْمٌ. لا شيء، هنا، يقال له نهاية.

بعل

الكيان، عِنْدَنا في الهيكل جوهرًا ووجودًا، عهدُ زواجٍ خَلِيٍّ مِن همومِ العَرَض. كياننا هذا، بخلافِ ما توحي الظواهرُ، لا نهاية لمَداه. أللحُبِّ، حُبِّنا، مِن نهاية؟

بك

النهاية وهْمٌ لأنّها زوال. لو مُنعنا عَهْدَ هيكلنا، ـ حَقَّ حياتنا، ـ لتعذَّرتْ علينا أسبابُ الحياة، فزلْنا أو كدْنا نزول.

بعل

آنَ لنا أنْ نرى الأمور، أمورَنا، كما هي في الواقع، لا كما نودّ لو تكون. الحقيقةُ السافرة، القاسية، هي أنّنا إنْ أنكرَ عالَمُ يومنا طبيعةَ هيكلنا، طبيعتَنا زمنًا ومكانًا، ـ أفضينا إلى كارثة نحْن فيها أوجُ إخفاق.

بك

حينئذ كلُّ شيء، عِنْدَنا، كارثة. العالَم كارثة. الهيكل كارثة. الإنسان كارثة. فحْوى زواجنا كارثة، كارثةٌ مركَّبة. لا مرتجى فلاحٍ لنا ما دمنا أَسرى أَنفُسنا وأَسرى الآخَرين وأَسرى سِوانا، وما دام واقعُ أمْرنا المرفوضُ لا مَردّ لأحكامه في مُعْظَمِ الأحوال.

بعل

حينئذ حتى الألوهةُ، في هيكلنا، كارثةٌ وقد أعيا الألوهةَ أنْ تَبْني حرّيَّةَ هيكلِ حُبٍّ موفَّقِ الزواج.

بك

يا للكارثة مِن بَعْدِ تفاؤلنا في شهرِ العسل أو، على الأصحّ، في دهرِ العسل!

بعل

لو ندَعُ عنّا التفاؤل المِثاليّ، المعسَّلَ، فنعالجَ أزماتِ هيكلنا بمقتضياتِ حلِّها نتولّى أمْرَنا فيها بجِدِّ الأصالة وكدِّ الطموح، نفعل لسنا نكتفي بأنْ نقول!

بك

إنّها تقدُّميّةٌ واقعيّةُ المثُل هذه التي نتمنّى فنحاول.

بعل

لكنّ هذه التي نتمنّى فنحاول ربما تضمّنتْ متناقضاتٍ يلزمنَ عن طبيعةِ كياننا، فيتسبَّبْنَ بكثير مِن أزماته. فلا نلبث طويلًا حتى نُضطرَّ إلى أنْ نذعن لِما يُفرَض على هيكلنا عنوةً واقتدارًا، برغم مِن ثباتِ أُسُسه، أسُسِنا، وبرغم مِن متانةِ أَعمدته، أَعمدتِنا.

بك

إلى متى هذا الظلم؟ ألا خلاص؟

بعل

إذا صحَّ، هنا، أنّ الظلم لا خلاص منه إلّا إليه، وجبَ أنْ نَعْدل عن سلبيّاتِ المقاومة إلى إيجابيّاتها، نَرودُ مستقبلًا لعلَّه يُشْرِع لأزماتنا تسويةً ولو إلى حين، فلا نظلّ مِن أزمة إلى أزمة وكأنْ ليس مِن فَرَجٍ قريب.

بك

غير أنّ في سوابقِ التسوية المؤمَّلة بعضَ وحْشيّاتِ التخلّف.

بعل

كم هجمتْ علينا تلك الوحشيّات وقد أرادتْنا على أنْ نمتثل أَمْرَها الغازي! يا لقوّى انفجرتْ علينا، فأضحينا في قبضةِ آلتها، وأضحى هيكلنا يَضيق كلّما اتّسع، إذ حرِّيَّتُنا فيه مكبَّلةُ الزوجَين وسائرِ الأُسرة!

بك

أنكون في أزمة جديدة يحيِّرنا ما بها مِن إشاراتِ غموض؟

بعل

لسنا في أزمة جديدة. أزمتُنا المركَّبة شِبهُ دائمة. الضواغطُ، عموميّةً وخصوصيّةً، شديدةٌ جدًّا حتى إنّها تؤثِّر فينا أجمعين تكاد تشمل جُلَّ ميادين الثقافة، إنسانيّاتِها وعلومها الصحيحة والتقنيّات، فضلًا عن شؤون المعيشة والشواغل الآنيّة وما إليها وعنها إجمالًا وتفصيلًا.

كلُّنا في ترقّبٍ كونيٍّ الحذَر، زَمَنيٍّ القَلق؛ كأنّ الضواغط، معنويّةً ومادّيّةً، آيةٌ مِن لزوميّاتِ عصْرنا، ـ عصْرِنا العامّ وعصْرِنا الخاصّ، ـ أفي حَرَمِ الهيكل كنّا أم في خارجه.

بك

آيةٌ حديثة؟

بعل

حديثة في الظاهر. أمّا في الباطن، فهي على قِدَمِ المعرفة وخطيئةِ المعرفة، مع بعضِ التحوّلات والفوارق بَيْنَ جيل وجيل.

بك

فكان، في ما كان، أنّا جنحْنا إلى غلوٍّ لارجوعٍ قد يَطيرُ بنا مستقبلُه نحْوَ عبثيّةٍ وجودٍ نتوخّى أنْ نبتعد عنها ما استطعنا.

بعل

نَنشد التقدّم، لكنْ بشرْطِ ألّا يودي بقِيَمنا الإفراطُ فيه فيجاوز بنا حدودَ المعقول.

بك

غير أنّ المعقول يستمدّ بعضَ أحيانه مِن اللامعقول الذي قد يُدْرَج في المعقولات المفروضة إذا حُتِمَ عليه بعضُ أحكام الواقعيّة، القاهرة.

بعل

كانت حدودُ المعقول، ـ حدودُنا، ـ في تنوّعها وفي تعدّدها، رمْزَ الحصن الذي به نعتصم وعنه نذود. فلمّا سقطتْ مَقولةُ حدودنا، أَفضينا إلى جفافِ إبهامٍ رهيبِ المَدى كأننا في بعضِ صحارى التّيْه. لا فحْوى ماءٍ، لا حضارةَ غرْس، لا شيءَ مِن غِنًى حياة.

بك

بهاتيك الصحارى ضَياعُنا وجودٌ في مِثْلِ عدمٍ جديد.

بعل

إلى هذين النقيضَين، في هيكلِ اليوم، انتهينا، إنسانًا وحيوانًا ونباتًا في عشائرِ جماد.

بك

مات مَن عاش. عاش مَن مات.

بعل

أحوالُ الجوِّ، عِنْدنا، حركةُ حياة وسْطَ نُذُرِ زوال.

بك

نتفاءل تشاؤمًا. نتشاءم عن تفاؤل. نحْنُ، زوْجَي الهيكل، زادُ النقيضَين. على جدليّتهما يدور بنا الزمن والمكان في أجيالِ شرق منّا وجنوب، إلى أجيالِ غَرْب وشمال.

بعل

أمام الطاقات الكونيّةِ الشمول، والشهواتِ المباحةِ الحدود، والرؤى التي تَفوقُ واقِعَنا، ينتصب الهيكل. يَثبت. يتحرّك. يواجه. يقاوم. يستسلم. يسقط. ينهض.

هيكلُنا أُمّةُ زَعازع. لا سلام، لا استقرار.

بك

ندّعي التقدّم. نصدِّق أنّا نتقدَّم. نُرجِع أسبابَ تقدّمنا إلى مخدَثاتِ الشمول في العامّ وفي الخاصّ.

بعل

جديدُ زمانِنا، هذا، الشمولُ. أشياؤنا جُلُّها في تداخلِ أشيائه. لم يبقَ لدينا مِن فواصل. ثمّة فوارق ليس غيْر.

بك

لا فواصل، إذًا لا حدود. إنسانُ يومنا بلا حدود، أو يكاد يكون.

بعل

لا حدود، إذًا لا قيود. هو الشمولُ يحتوي فيلغي مَعْنى الحدِّ والقَيدِ جميعًا.

بك

الشمولُ الكونيُّ الطاقات رأْسُ مال وقَلْبُ فقْر. مَعِيّةُ المال والفقْر نقيضةُ هذا الشمول.

بعل

المَعِيّةُ مالًا وفقْرًا ـ برغمِ النقيضة ـ شهادةُ زواجٍ مَدَنيّ لسنا وحدنا على عهْدِ سِرِّه.

بك

المَعِيّةُ، في انفتاحِ تنوّعٍ وتعدّدٍ، ـ مع تمامِ الوفاءِ الزوجيّ وفاءً لعَهْده، ـ هي مِن طبيعةِ سِرِّ الزواج، كلِّ زواج. زواجِ دِين ودنيا مِن

خلالِ إله وإنسان. زواجِ وطن وشَعْب مِن خلالِ قوميّةِ أُمّة. زواجِ مال وفقْر مِن خلالِ واقعِ أمْرٍ ما. زواجِ كذا وكذا مِن خلالِ كذا وكذا. إلى ما هناك مِن رُموزِ مَعِيّةٍ في مَعاني كتابِ الزواج.

بعل

حيالَ التنوّع والتعدّد، صارت مَعِيّةُ الزواج مشكلةَ جدليّةٍ فتحتْ كثيرًا مِن الأبواب التي يصعب أنْ تُغْلَق كأنّ وراءها عقْدةَ انحراف.

بك

لا انحراف وراءها، بل توقُّعُ انفجار. بؤَرُ قضايا شائكة. معتقَلاتُ رهائن. إرهابُ فكْر وقول. أسوارٌ تطوّقُ حرّيّةَ الهيكل. أسرارٌ تحفُّ بزواجِ الحرّيّة.

بعل

عدْنا إلى الأساس: الحرّيّةُ منطلَقُنا، والحرّيّةُ غايتُنا. أينما كنّا، وكيفما عملْنا، اعتمدْنا على الأساس.

بك

بدونِ الأساس لا نكون؛ وبالأساس نكون، لكنْ...

بعل

لا بدّ مِن **لكن**. أمِنْ شيءٍ ممّا يقال فيُعمَل ليس فيه أثرٌ مِن **لكن**؟

بك

كنّا نَحسب، ونحْن بفتوّةِ شأْويّاتِنا، أنّه يمكن الاستغناءُ عن **لكن**. فلمّا تقرَّينا أبعادَ **لكن**، واكتنهْنا محتوياتها ما استطعنا، فعرفْنا كيف التمرّسُ بها مَعْنًى وتركيبًا، اختبْرنا أنّ **لكن** لا يستغنى عنها. فصارت تردُ عفوًا في ما ينبغي لها مِن مَواقفِ سِيرتنا، عباراتِ زواجنا سِرّه وعَقْدِه متضامنَين في قداسةِ عهْد.

بعل

حَقٌّ علينا أنْ نعتبر بما نختبر. بيد أنّنا قليلًا ما اعتبرْنا، وكثيرًا ما نسيْنا، ونادرًا ما تذكَّرْنا.

بك

إذا صحَّ ما تقول هنا، وأخشى أنْ يكون صحيحًا، استنتجْنا أنّ أغلبَ مواقفنا في جُلِّ شؤونِ الهيكل، سياسيِّها وثقافيِّها واجتماعيِّها واقتصاديِّها، وما إليها وما عنها، مَواقفُ ربما ضلَّتْ عن وجهِ الصواب حينَ تطرَّقْنا بها إلى ممكناتِ المستقبل.

بعل

لـمّا ذهبنا إلى أنّ مستقبلنا الهيكليَّ سوْف تَسُوده حضارةُ تقنيّاتٍ مبرمَجةٍ ناشئةٍ عن أحكامِ طاقاتٍ كونيّةٍ مبرمِجةٍ فسلَّمْنا بأنّ المستقبَل للسَمَك الكبير الذي يلتهم السَمَكَ الصغير، بنَيْنا هذا المستقبَل على سلبيّاتِ استهلاكيّةٍ متبادَلةِ الإفناء لا يَبقى معها مِن حقيقةِ وجودٍ للسَمَك الكبير ما لم يَبقَ مِن حقٍّ وجودٍ للسَمَك الصغير.

بك

أصحيحٌ أنّ المستقبل وقفٌ على السَمَك الصغير؟ لستُ أصدِّق. أمفارَقة هنا أم سوءُ تفاهُم؟

بعل

لا هذا، ولا تلك؛ لكنّ في تضامنِ الحقيقةِ والحقِّ مَنطقَ مَصيرٍ يتولّى الهيكلَ، مَن فيه وما فيه، فيُجاوزه إلى هياكلِ غَدَويّاتٍ فيهنّ تُولَدُ نطفةُ المستقبل. فلا يكون العملُ في سبيلِ الهيكل عمَلَ مضطهَدين مسترَقِّين قد استبدّتْ بهم آفاتُ جَوْر، بل يغدو العملُ في سبيلِ الهيكل عمَلَ عالَمٍ حُرٍّ، حُرٌّ بسَمَكهِ الكبير وسَمَكهِ الصغير وبما بَيْنهما مِن طبقاتِ بَشَرٍ قد تساوتْ حقوقُهم أمام حقيقةِ الهيكل. فلا منطقة مِن مَناطقِ الهيكل إلّا مسَحتْها قداسةُ حقيقته؛ ولا إنسان مِن أهْلِ الهيكل قد تحكَّمتْ في حقِّه القبضةُ الحديد.

الهيكل يومئذ خبزُ الجميع، خبزُنا الذي طيَّبتْه العافيةُ روحًا وجسدًا.

بك

لكنْ، برغمِ مِن خبزِ العافية، يبقى عِنْدَنا اصطراعُ طبقات، جدليّةُ تَفاوُت، أزمةُ لامساواة.

بعل

ذلك هو الأرجح، لا الأرجحُ الفوضويُّ حيث اللاسُلطة هي السُلطة، بل الأرجحُ المنظَّمُ، أرجحُنا المفضَّلُ، حيث مَعاني السيِّد والمسُود يؤلِّف بيْنَها وحدةُ الحاجة الأزليّةِ، المستجَدَّةِ التي تستمِدُّ حيويَّتَها مِن مقتضياتِ مَصيرهما الجامع، المشترَك.

بك

ما فحْوى ذلك؟ أطبيعةُ مَوقف أم تسويةُ ائتلاف عن اضطرار لئلا نهلك إذ ينهدم علينا الهيكلُ بماضيهِ المفْعَم، وحاضرِهِ المتأزِّم، ومستقبلِهِ المتوعِّدِ الطاقات؟

بعل

لستُ أدري. كلُّ ما يَلوح لي مِن ذلك هو أنّه وجهٌ للكينونةِ حديثٌ يتفاعل فيه الأبيض والأسود وسائرُ الألوان، تتكامَلُ، لا تتقاتلُ، لئلا ينقضّ الوحشُ عليها، فيمسي الهيكلُ بها مَشْهَدَ خراب.

بك

دَعْ عنّا مَشهَدَ الخراب. كفى بنا ما ابتَلينا منه في طولِ تاريخنا، وفي عَرضه، وفي عمقه، وفي مَسافاته الأُخرى المنظورة وتلك التي لا تراها العيون.

بعل

أجَلْ كفى. لقد أوفَينا على مَواطنِ الإيجاب المتعالي كأنْ لم يكَدْ يبقى مِن خَطَرٍ علينا ولا مِن تهديدٍ لنا؛ فاستطعنا أنْ نحتوي فنستوعبَ ما بالجذور منّا وما بالفروع.

بك

بَيْد أنّ المشكلة ليست ههنا. لا ندْحة لنا عن أنْ نقارب قضيّتَنا مِن أبعدِ غوريّاتها التي تمتدّ بنا إلى ما تحت بواطنِ الأساس توحي أنّ التحتانيّة منطلَقُ مقارَبتنا القضيّةَ عامّةً وخاصّةً.

بعل

نكاد نجد في هذه التحتانيّة طَرْحاً لقضيّتنا تقدُّميَّ الشَجاعة مؤدّاه أنّ الإيمان ـ إيمانَنا المُهَيكَل ـ ليس في حدودِ الكيان الذي ورثْنا، بل هو في مهاوٍ لم يتردَّ فيها كيانُنا، وهو، بالوقت عيْنه، في أَوْجيّات لم يَرْقَ إليها هذا الكيان.

إيمانُنا ـ سليلُ خطيئةِ مَعْرفتنا الجديدةِ ـ تَرْجع بنا أصولُه إلى صفاءِ ساعاتِ التبكُّر، إذ الشجرةُ مَعرفةٌ يقَظةُ فَجْرٍ يحرِّرنا لا أفيونُ دهرٍ يخدِّرنا أجيالَ أفراد وجماعات.

إيمانُنا الجامِعُ، المانعُ، لا حياة لنا إلّا به؛ لكنْ لا حياة لنا به وحْده. إنّه، في وجهٍ ما، طريقُنا إلى الحرِّيَّة ومُعِيقُنا عن الحرِّيَّة.

بك

أتُرانا على مَوقفٍ مستحيل مع كوْنه، عِنْدَنا، بمَواقفِ اللزوم؟ أمِنْ قوّةٍ تقدر على إيماننا؟ أمِنْ قوّةٍ تعجز عن هذا الإيمان؟

بعل

بإيماننا نحيا مِن غيْر أنْ نحيا؛ وبه نموت مِن غيْر أنْ نموت. حياتُنا ومماتُنا بمعِيَّةِ هذا الإيمان.

إيمان؟ لا إيمان؟ أمِنْ مسوِّغ لثنائيّةِ السؤال بَعْدَ مسكونيّةِ أفعالِ الإيمان تعاملًا وتبادلًا في تداخلِ عِلل ونتائج؟

بك

ما فحْوى ثُنائيّةِ السؤال؟ أوراءَها استقالةُ مَعْنويّاتِ الإيمان؟

المهمّ هو أنْ نعرف كيف نقول لا، كما عرفْنا كيف نقول نَعَم. للاستقالةِ استسلامًا نقول لا. ونَعَم نقول للعمل حجَرًا على حجَر في سبيلِ حضارةٍ تسمو بالحجَر إلى مستوى الهيكل، وتسمو بالهيكل إلى مستوى الحياة، وتسمو بالحياة إلى مستوى الزَوْجيّة الناطقة، المنجِبةِ، الموفِّقة.

بعل

رفقاً بنا يا حُبّي. مِن الإيمان بالحياة لم نستقلْ، ولكنْ قمْنا نحاولها نَرصفُ حضارةَ هيكلنا ـ هيكلها ـ حجرًا لصْقَ حجر قد بُني على حرِّيَّةِ ذاته مِن خلالِ حرِّيَّتي سابقهِ وتاليهِ في تساندِ ثلاثيّةٍ تُبطِلُ أسئلتُها مَوقفَ التشاؤم دوْن أنْ تُثبِّت عهْدَ التفاؤل.

بك

ما هذه الثلاثيّة؟ ما مضمونها؟ ما المقصود بها؟

بعل

فاتحةُ الثلاثيّة سؤالٌ خلاصتُه: ماذا نستطيع أنْ نعرف؟ فنجيبُ أنّنا نستطيع أنْ نَعرف كوْنَنا نَعرف قليلًا يقول كثيرُه بأنّ عالَمنا، في داخليّ الهيكل وفي خارجيّه، ليس خيْرَ العوالم، وبأنّ بَشائرَ خلاصه ضبابُ أوهام تحجبُ عنّا حقيقةَ المستقبل وكأنْ لا رجاء.

واسطةُ الثلاثيّة سؤالٌ ناشئٌ عن أواخِر سابقهِ، وخلاصتُه: أيحقّ لنا الرجاء؟ وكم يحقّ لنا منه؟ فنجيبُ أنّه يحقّ لنا أنْ نرجو قليلًا لا يكفي ليجلوَ عن أرضِ الهيكل وعن سمائه غياهبَ الخيبة والسقوط.

حيالَ الغياهب ماذا يجب أنْ نعمل؟ تلك خاتمةُ الثلاثيّة المُسائلة. أمّا جوابُنا العفويّ فهو أنْ نعارض الظلمات، نعتنقُ الضياءَ وقد انبثقَ مِن حضارةِ الشمس، نغرسُ في كلِّ قُطْرٍ مِن عوالمِ الهيكل، أرضِهِ وسمائه، شجرةَ مَعرفةٍ تُكَوكِبُ في ما بَعْد الظواهر، كأنّما الضياء حياةُ هيكلنا إقدامًا في مَدى طبيعتنا وفي ما فَوْق الطبيعة.

بك

كيفما نُقْدِمْ نَرْجِعْ إلى الماورائيّات لا غِنَى لنا عن أنْ نتعالى فيها. فإمّا أنْ يكون هيكلنا روحيًا ولو في صميمِ مادّيّاته، ومادّيًا ولو في صميمِ روحيّاته، وإمّا أنْ تحتوينا غياهبُ انكسار يعطِّل فينا محرِّكاتِ الوجود، فنشعر بأنّ العدَم يكاد وحشُه يفترسنا شخْصيَّ أفرادٍ وجُموع.

بعل

الافتراسُ هو، أحيانًا، بفطرةِ الحياة لا في شيمةِ العدَم وحْده. اختصاصيّو الموت لا تَغْرب عنهم تلك الأحيان يريدون أنْ يحبسوا الهيكلَ عن أنْ يتحرَّر مِن حُكْمِ الجثث.

يا لسيرة الهيكل إذ هي أكبرُ مِن أنْ يحتويها الموتُ فيطويها! يا لسيرة الهيكل إذ هي أصغرُ مِن أنْ لا يحتويها ولا يطويها الموت! الشأنُ الأكبر والشأنُ الأصغر مَعِيّةُ حَيرة في جدليّةِ مأساة.

بك

سيرةُ الهيكل ـ سِيرتُنا ـ ممنوعةُ المَصِير إمّا طوَّقتْ بعضَ مَراحلها أسوارُ مَحابس هي حوائلُ أسرار يُعْيينا أنْ نفكَّ أكثرَ عُقَدِها.

بعل

لكنْ في مَ يكون مَصيرُنا بالنسبة إلى أبدِ الهيكل، ـ الهيكلِ جلالةَ مَبْنًى في مَعْنَى غيبيّات، الأبدِ الذي لا نستطيع أنْ نُبْصِر؟

بك

حسْبنا أنْ نكون في ما نستطيع أنْ نُبصِر نكتنهُ ما نُبْصِر فنَصِير.

بعل

لسنا، في الظاهر، إلّا رمزيّةَ الهيكل. أمّا في باطنِ الأمر، فلعلَّنا السِيرةُ الخارقةُ، المبرمَجةُ القدَرِ وفْقَ أَلفِ عنصرٍ ممّا نُبْصِر وممّا لا نُبْصِر. أما نَحيا على سنّةِ الخبز والخمر، حقِّنا اليوميّ، الأزليّ الثباتِ والتجدّد؟ أليست سنَّتُنا، هذه، تراثَ حرّيَّتنا في رجاءِ غدِنا إلى مَدَى عُمْقيّات؟

بك

الخبزُ والخمرُ أبجديّةُ سِيرتنا، في مغامَرةِ شِعْر ونثْر مِن سِفْرِ كينونة وكتابِ مَصير، مِلءَ فصولِ عُمْر على اختلافِ نهار وليل.

بعل

أجَلْ مغامَرةُ شِعْر ونثْر؛ لكنْ، إلى ذلك، مَلحمةُ هيكل قد هبَّ طموحُه يتسوَّر الحوائلَ، يقاوم الجمودَ والتصامَّ واللامبالاة، يبدِّد، يوحّد، يجدِّد في ما ليس له مِن أَمَدِ حَدٌّ على المَدى المنظور.

بك

ما مِن شيءٍ مؤكَّد ههنا. ما مِن شيءٍ مقرَّر. ما مِن شيءٍ نهائيّ. كلٌّ

شيءٍ لنا فهو مِن أمْرِ حالٍ ما إلى أمْرِ حال. كلُّ إنسٍ منّا فهو الممثِّل والتمثيليّة والمسْرَح في تداخلِ أنواع وأدوار وأغراض. ذلك مَشهَدُ مَصيرنا، هيكلِنا الثابت ثباتَ حركتنا الدائمة.

بعل

قضيّةُ وجودنا ـ حركتِنا، هذه، الدائمة ـ نَطرحها على أنفسنا فيما نَطرحها على سوانا، فضلًا عن الآخَرين. فحْوى السؤال: أما نَزال يحقّ لنا أنْ نكْتنه، فنكون، فنَصير؟

بك

يا لعناد قضيّتنا، فكْرتِنا الثابتة ثباتَ الهيكل الذي بُنيتْ عليه فتبنّاها!

بعل

يا لعناد المستحيل! نأبى أنْ نكْتنه، ونأبى إلّا أنْ نكْتنه. **لا** و **نَعَم** في هيكلٍ فَرْد. ليلُنا ونهارُنا بوقتٍ معًا. نحْنُ ازدواجيّةُ المستحيل...

بك

المستحيل الذي ما يفتأ يتكرَّر بنا وفينا.

بعل

إنْ لم يكنْ أمامنا إلّا المستحيل، ألا نرى فيه ممكناتِ خلاص؟

بك

المستحيل؟ نَعَم. الخلاص بالمستحيل؟ لا.

بعل

برغمِ التخالف، **نَعَم** و **لا** سيّان أمام المستحيل. هنا الرؤيا على

غارِبِ المطْلَق فوْقَ كلِّ غاية. لا شيء، هنا، مِن عُقَدِ المركَّبات روحًا وجسدًا في خطيئةِ مَعْرفة. كلٌّ شيء هو في عُرْيِ البراءةِ البِكْرِ التي أَفْضتْ بَدْئيّاتُها إلى المنتهى فلم تَبْرح، مع ذلك، تَطمَحُ في أقصى بُعْديّاتِ المَزيد.

بك

يا أيّها الهيكل! يا كيانَ القِيَم المعرَّض لزوال! أعطِنا، في زَوْجيّتنا المشترَكة، أنْ نَثْبتَ على زلازلِ عنْف، ونتغلَّبَ على نوازلِ اضطهاد، نتقلَّبُ، نتحوَّلُ، نبقى في صفاءِ حُبٍّ وصَفاةِ إيمان. فنستحقّ الحرِّيَّة في عزِّها التاريخيِّ، المُهيكَل، فنتمثَّل، فنكْتنه، فنَعْمل نبني أُمّتَنا بناءً جميلًا جَمالَ الحياة.

بعل

لا شيء، هنا، يُقْلقنا كمثْلِ جَمالِ الحياة تعبيرًا عن طبيعةِ إشارات يستعصي علينا سِرُّها. في حضرةِ ذلك الجَمال نرتعد خوفًا منه على سعادتنا، نَحذر أنْ يضطرّنا إلى ما لا سبيل لنا إليه إلّا بالفراقِ جُرْحَ انفصام.

بك

لكنّ جَمال الحياة آيةُ سِيرتنا في مسوِّغاتِ الكيان، وزاويةُ وجودنا في حقيقةِ الهيكل.

بعل

هنا، في زاوية مِن هيكلنا، لَطْخُ دمٍ على حجَرٍ، حجَرِ قَبْرٍ، قَبْرِ شهيد. الشهادةُ حجَرُ الزاوية في حضارةِ الإيمان خبزًا وخمرًا. حجَرُ

الزاوية هذا أوفى، عِنْدَنا، مِن مَعْنى كلِّ حجَر. إنّه المبدأ، السنَدُ، رُوحُ النضال قاعدةً وقمّةً. كلُّ ما لدَينا، ألَنا أم علينا، فبهِ يَنطق حجَرُ الزاوية، وإيّاه يحقِّق، فنكون. الكلامُ، هنا، عِلمُ حياة وموت وما وراءهما مِن أمورِ **نَعَم** ومِن أمورِ **لا**. حيالَ عِلمِ الكلام، هيكلُنا جدليّةُ اثنَين يدّعيان، يَحسمان، لا أحد منهما يسأل، كلاهما يجيب. إلّا أنّنا، في الكثير الغالب، نطلبُ ما يَسأل ونتجنَّب ما يجيب. الجوابُ، أحيانًا، إغلاقٌ والسؤالُ فتْحُ أبواب.

بك

لكنْ ألسنا بالسؤال وبالجواب نختصر المسافة التي تفصلنا عن حقيقتنا في الهيكل، أو عمّا نَحسبه إيّاها؟

بعل

جوابًا لا نؤكِّد، بل كثيرًا ما نردِّد أنْ لسنا ندري نَسأل لماذا نعرف الهيكل ونجهل أَنفُسَنا فيه؟

بك

ربما تبيَّن لنا، في بعض الأحيان، أنّ ما نعرف مِن حقيقةِ الهيكل، روحيّاته ومادّيّاته، يزيدنا غربةً عن حقيقتنا في الهيكل نجدُ بغربتنا، هذه، ما يخيِّب رجاءنا في أنفُسنا وفي آخَرينا وفي سوانا.

بعل

أليس عِنْدَنا مِن الرجاء كفايةٌ تُنْطِقنا فنخيب، ومِن الخيبةِ كفايةٌ تُسْكِتنا فنرجّي؟ أوَليست قوّتنا في مَوقفِ السُكوت؟

بك

قوَّتُنا، هذه، ضمانُ قُوْتنا لا يخفى علينا أنّ السُكوت قد يتضمَّن مِن الغوريّات مَعرفةً قدْرَ ما قد يتضمَّن مِن السطحيّات عمايةً وجهلًا.

بعل

لو نميِّز بَيْن تحفّظِ عُمْقٍ وحُمْقِ مَقال! ثمّة أشياء لا يُفصَح عنها إلّا في تمامِ أوانها، لا قبْل ولا بَعْد.

لو نَكْتنه، في سلوكنا بالهيكل، مَعْنى السكوت الذي له في ضميرنا دَورٌ تاريخيّ يؤدّي مهمَّةَ النُطقِ بأحوالِ سُكوتنا هذا!

لو نكون ولا نكون باللحظة عيْنِها! فنرى أنّ بعضَ ما يجري في الهيكل على أيّامنا هذه قلّما يتصل بنا أمْرُه، فنَسْكت عنه لا عجزًا بل عن حِكمة ريثما تنقضي مُزْرِياتُه. الانتظارُ، عِنْدَنا، فنٌّ برأْسه: أنْ ننتظر هو أنْ نعرف متى وكيف وإلى متى ننتظر.

بك

الانتظارُ، بمَوقفنا هذا، عَقلُ غريزة في نهْجِ مَنْطِق إلى طريقةِ عمل. نَدَعُ غيْرَنا يَنطق، يُخرِج ما لديه، يعمل. نستمع. نراقب. نختبر. نستنتج. ثم ننطق، فنعمل. نكون آخِرَ مَن ينطق، فأوَّلَ مَن يعمل. في صميمِ الهيكل نعمل. مِلءَ يومه نعمل. صبْرًا ودهرًا يقتضينا ذلك كلُّه أَجمع. بُحيرَةَ سَكينة نكون. ونكون بَحْرَ أمواج. لكلٍّ ساعتُه. السَكينة لها ساعتُها؛ والأمواج لها ساعتُها. لكلٍّ هويَّةُ وقته. الهويَّة، ولو وقْتيَّة، كلمةُ حضارة في شهادةِ كيان.

بعل

لئن استطعنا أنْ نعدِّد كثيرًا مِن معطياتِ الحضارة، ليتعذرنّ علينا أنْ نحدِّد أجيالَ الطاقات التي نحتاج إليها لكي نُعيد بناءَ الإنسان الذي فقدَ هويَّتَه.

بك

أنْ نستردّ الهويَّة التي فَقدْناها، فنُرْسخها بمَسْقَطِ رأْسنا الحيِّ لا في أنقاضِ مَوات، ذلك شأْوُنا المتوخّى.

بعل

على طُموحِ تاريخنا المستقبليِّ نابضًا بتراثِ فَرَحِنا وجُرْحِنا، لا على أيِّ تاريخ كان، نبْني وطنَ هويَّتنا التي حُرمناها.

بك

كم مِن محاوَلةٍ اجتُرحتْ لإخراجنا مِن تاريخنا، وطنِنا، بَيْتِنا الكبير، ترحيلًا لنا إلى مَنفى تاريخٍ مَنْطِقُه غريبٌ عنّا!

بعل

أمِنْ أصالةِ وجودٍ لنا في خارجِ تاريخنا؟ مَن ذا الذي يَقدر أنْ يجتثَّنا منه ولو حبَسَنا عنه ظلمًا وبهتانًا؟

بك

التاريخ، تاريخُنا، كمثْلِ حياتنا: عِنْدَ أوَّلِ نظرة لا شيء منه يتغيَّر، في ما يبدو، بل كلُّ شيء يتكرَّر مَرحلةً فمرحلة، على تعاقبِ الفصول. لكنْ

إذا أَمْعنّا ثمّة في ما يزيدنا بُعْدَ كشْف، وجدْنا كلَّ شيء، على وجه التقريب، قد أخذ يتغيَّر.

بعل

لا شيء يتغيَّر إذ يتغيَّر كلُّ شيء! أمُعضِلةٌ هنا أم فجْوةُ مَصير؟ لو نؤتى البصيرة التي تَشْمل حقيقةَ المسافة، زمنًا ومكانًا، بَيْنَ ما نرى وما لا نرى، فندرك أنّ ما نرى لا يكاد يخلو مِن واقعِ بعضِ الأوهام!

بك

أما نحتاج إلى واقعِ بعضِ الأوهام لكي تنجلي لنا حقيقةُ تلك المسافة التي ما نفتأُ نَطويها وقد وحَّدتْنا، إلهًا ومَدينة، في هيكلِ حُبّ؟

بعل

كيانُ زَوْجيَّتنا يحقِّق نفْسَه وجنْسَه ما اقترن حُبُّنا بحُبِّ آخَرنا. القِرانُ، في إيجابيّاتِ ظواهره وأبعاده، هو، عِنْدَنا في الهيكل، أصلُ التعامل وفعلُ التكامل في صنْعنا التاريخَ عامًّا وخاصًّا.

بك

إنْ أَنسَ لا أَنسَ أوَّلَ لحظةٍ لنا بسِفْرِ تكوينِ الهيكل وقد اجتذبَني إليكَ العملاقُ الذي لقيتُ فيكَ، فاشتغلتْ فيَّ كلماتُك. كنتَ كلّما تلفظَّتَ بحَرفٍ منها تألَّفتْ نبذةٌ مِن كتابنا، هيكلِنا، زَوْجيَّتِنا، سِيرتِنا الآتية في ما تبدّى لي منها وقتئذ؛ وهي اليومَ سيرتُنا الغابرةُ، الحاضرةُ، الغَدَويَّةُ المَسير في ضميرِ الهيكل، ومِن خلاله في ذاتكَ وذاتي معًا.

فصِرْنا بمَعْنَى مدينة وحضارة، وبمَعْنَى وطن ومَنفى، وبمَعْنَى شمس وظلام في حُكمِ نهار وقضاءِ ليل، وصِرْنا...

بعل

صِرْنا بَمَعْنى كلِّ شيء إذ حرِّيَّةً صِرْنا.

بك

لكنْ، قبْلما صِرنا حرِّيَّة، كنّا بمُطْبِقِ استنطاق في جوٍّ مَحكمةِ تفتيش. لا عنْف، لا تعذيب، بل مَنطِقُ تطويق صارمُ الحجّة، مهذَّبٌ، مُتْرَفٌ، أسئلتُه مشروعُ جواب يَفضح ما يمكن أنْ نُخفي. فالسِرُّ علَنٌ، والكتابُ مفتوح. قوّةُ المَنْطِق لغةُ المستنطِق.

بعل

إلّا أنّنا، برغمِ ذلك أو بسبب منه، صِرْنا حرِّيَّة. ولو بَلونا مَنْطِقًا آخَر، لما استطعنا أنْ نكوِّن حياتنا ونَبْني سِيرتَنا على النحو الذي أَتينا. صرامةُ المَنْطِق ودقائقُ الاستنطاق محكُّ حرِّيَّتنا.

بك

يا للمسْرحيّة! يا لشَبح التحدّيات!

بعل

لا بأس علينا. حسْبنا أنْ نمارسها فنتمرَّس بها. ذلك أصعبُ مما يُظَنّ أوَّلَ وهلة. شَبحُ التحدّيات لا تَغْنينا مَواقفُه في خارجِ المسْرحيّة، ولكنها تَغْنينا إذ هو على الخشبة يؤدّي دوْرَه فعلًا لا تمثيلًا. شَبحُنا،

هذا، لسنا نَقْبَله لأجْلِ مَواقفه الفعليّة وحْدها، بل نَقْبله أيضًا لأنّنا نؤْمِن بالحرِّيَّة، حرِّيَّته وحرِّيَّتنا.

بك

غير أنّ الحرِّيَّة، في بعض سَلبيِّها، تقتصر على أنْ لا نموت مِن جوعِ جسدٍ أو روحٍ، أو مِن كلا الجوعَين.

بعل

مهما يكن مِن سَلبيِّ الحرِّيَّة، فضلًا عن إيجابيِّها، فإنّ الحرِّيَّة بلا خبزٍ جوعٌ، وإنّ الخبز بلا حرِّيَّة مَجاعة.

بك

يا للمسْرحيّة! يا لشَبح التحدّيات جوعًا ومَجاعة!

بعل

شَبحُ الجوع والمَجاعة يحلّ له أنْ يضطلع بتبعاتِ دَوْره، في الهيكل، على توالي فصولِ المسْرحيّة.

مِن الموت أقام شَبحُ التحدّيات إنسانَ دَوْره، لعازَرَه. مِن اللحد مضى لعازَرُ في الاتّجاه المعاكِس؛ على حين كان سواه، في الاتّجاه اللامعاكِس، يمضي مِن المنِيَّة إلى الضريح. لعازَرُ نهضَ إيمانُه بما يتخطّى المنِيَّةَ، فقام إنسانُه بمهمّةِ الحياة انتصارًا على حُكمِ الدُود، فناءِ الوجود، قضاءِ العبَث. لعازرُ هيكلِنا، هذا، هو شعارُ النَجْم الذي ما يني عهْدُه، الضوئيُّ السنين، يُشِعّ فينا وإنْ كانت سلالةُ النَجْم تكاد تنطفئ عِنْدَنا في عوالمِ غَرْب وشمال وشرق وجنوب.

بك

الأظهرُ أنّ الهيكل، هيكلَنا الذي تكاد تنطفئ سلالةُ نَجْمه، قد أخذ يهبط لم يَبقَ على مَشارفهِ الكونيّةِ المَدى. فهل الحياة، مع أريحيّةِ سمائها، أمستْ أرضُها أقلَّ إنجابًا وخِصْبَ دوام كأنّ كُلَّ ما فيها، كُلَّ هيكل، كُلَّ كيان، إلى حتميّةِ استهلاك؟

بعل

ذلك هو الأظهَر. والأظهَر، أيضًا، هو أنّ الأرض ما تَزال جديدةَ الهيكل، هيكلِ كلِّ شيء. فماذا دهانا إذ بتْنا نرى الغارب، الفاني، لسنا نرى الشارق، الباقي؟ إنّما الحياة أبدُ انتصار وإلّا غلبَها الموت.

بك

أين الانتصار؟

بعل

لا نفتِّشْ عنه في أقاصي النأي، ولكنْ لِنطلبْه في أداني الجوار. الانتصار هنا. إنّه منّا وفينا، وإلّا لما كنّا. فإمّا الانتصار، وإمّا الزوال.

بك

ما هذا الانتصار؟ حقيقة؟ خرافة؟ مَجمعُ متناقضات؟ أفي دخيلةِ كلٍّ منّا ـ دخيلةِ كلِّ هيكل ـ رجاءُ وطنٍ يريد أنْ يكون؟ حتى إذا كان، قمنا بدورنا على مَسْرحه، في مَشارقِ التمثيليّة وفي مَغاربها، ليس يغيب عنّا أنّه لا يكاد يبقى شيءٌ كما كان عليه، أو كما هو الآن ـ لا الأرض، ولا البشَر، ولا كثير مِن مفاهيم الدِين والدنيا. فالحياة استمرارُ تحوُّل في تجدُّدِ كيان.

بعل

ذلك، لا ريب، صحيح. فلو نجعل مفاهيمنا على هَذْيه كلّما كنّا في ساعة منه، فنصيرَ على حقيقتها، لا على حقيقةِ ما قَبْلها، ولا على حقيقةِ ما بَعْدها.

بك

ما قَبْل وما بَعْد، تلك هي المشكلة. الآنُ، في حَقِّ ساعته، هو الحَلّ الأقرب. الآنيّةُ، على بساطةِ أمْرها، سبيلٌ إلى ممكنات.

بعل

الكينونةُ بالآنيِّ أشمَلُ تعبير عن ملحّاتِ الحاجة إلى أنْ نتغيَّر نتكيَّفُ على مقتضى الساعة التي نَحيا فيها.

ساعتُنا، هذه، تاريخٌ في شيء مِن دوام، وما هي مَرْحلة مِن مَراحلِ عُبور. أما قيل إنّ الآلهة وهبتِ الزمنَ للإنسان إذ لم يَسعها أنْ تعطيه الخلود؟

ساعتُنا وجودُنا حاضرًا. الوجود وجهٌ للبقاء ولو في الظاهر.

بك

نشعر، في أحيان، أنّنا فراغٌ، فراغٌ طويلُ العمر، كأنّ هيكلنا بلا سكّان، فنخاف. نخاف ألّا نكون إذ لا جواب.

بعل

أمِنْ جواب إذ لا سؤال؟

بك

بَيْنَنا عهدُ حياة هي سؤال في صيغةِ جواب. سِيرتُنا أَحَبُّ سؤال إلينا في أَحَبِّ جواب.

بعل

بَيْنَنا الحُبُّ أو لا نكون.

بك

أليس عِنْدَنا ما نقول زيادةً على هذا الذي بَيْنَنا؟

بعل

أنْ نُوجِد فنَزيد، ذلك ما عِنْدَنا. نَقول، فنعمل، فنكون. ثلاثةٌ، هنا، في واحد.

بك

لو نستعرض ما سلف منّا منذ البدء.

بعل

السالف، مُفْرَداً، منفى عزلةٍ في مرارةِ عجْز:

باشرْنا حياتنا الزوجيّة كأنّنا، أنتِ وأنا، صحيفة يوميّة. فأتت علينا بضعةُ أجيال مِن حياتنا، هذه، فصِرْنا مِثْلَ جريدة أسبوعيّة... ثم مضَينا نُمسِك، مع بعضِ استمرار، فأَمسينا مِثْلَ مجلّة شهريّة، فنشرةٍ فصْليّة... فلمّا عيَّدْنا نودِّع قرننا الزَوْجيَّ العشرين، كدنا نعجز عن الصدور... وقد أعيتْنا زَمانةُ استهلاك.

بك

على مَ هذا التخلّي؟ القرون استهلاكًا يحتويها دهرُنا المُهَيكَلُ، العريق، فيُخْيِيها ما استطاع.

بعل

دهرُنا المُهَيكَلُ، العريق هو، أيضًا، دهرُنا المكبَّلُ، الغريق زوالًا في شبْهِ اغتيال.

بك

اغتيال؟ إذًا استشهاد، فبَعْث، فإلهُ خلاص لا يتعطَّل أبدًا عملُه. عوالمُ الطبيعة التي شملَها الإله إذ خلقَها، وربما كان أَعظمَها الإنسانُ، تَشْغله مشكلاتُها (أمِنْ حياةٍ بلا مشكلة؟) ما اختلف النهار والليل. الإنسانُ، دوْن سواه، يتعطَّل عملُه إذ يعرف بعضًا دوْنَ كُلٍّ.

بعل

غير أنّ الإنسان، في عصرنا الكونيّ، عميلُ الثقافة لا سليلُ الطبيعة فحسْب ـ الثقافة التي بمضمونها المطْلَق تريد أنْ تُجاوز مفهومَ السِرِّ في عوالمِ الطبيعة وفي ما بَعْدها على تنوُّعِ الأحوال وتعدُّدِ الفصول.

بك

لكنْ، مع ذلك، يبقى للسِرِّ الكلمةُ الأُولى والكلمةُ الأخيرة في كثير مِن مواقفِ العقل والشعور.

كلُّ شيء ثمّة فلَهُ سِرُّه. حتى اللاشيء له سِرُّه. السِرُّ نفْسُه له سِرُّه. السِرُّ هو الأساس، أساسُ المفهوم اللامفهوم. والإلهُ رأْسُ السِرّ، بدءُ الفلسفة، كأنّه أنتَ.

بعل

يا لها مِن مَسْرحيّة! على الخشبة أَكون مَن أُمثِّل وما أُمثِّل؛ وفي الحياة أُمثِّل من أَكون وما أَكون. هذه مَسْرحيّة، وتلك مَسْرحيّة.

بك

في كلا المسْرحيَّتَين شَبحُ إله يمثِّل؛ الرجاءَ يمثِّل. كلُّ دِين على الرجاء فهو أقوى مِن الموت ـ أقوى إلى حين. إزاءَ ملايين السنين الضوئيّة ـ ملايين الماضي وملايين المستقبل وما بَيْنهما ـ أَمِنْ أحد يجرؤ على أنْ يقول إنّ دِينه أقوى مِنْ أنْ يَزول؟

بعل

يُخيَّل إليّ أنّ الزمن أقوى مِن الأبد وإنْ كانت الحياة أقوى مِن الموت.

بك

الزمنُ قدَرُ الوجود في كلِّيَّةِ علاقاته، الوجودِ الذي بصيغةِ المفْرَد يَقول الجَمْعَ فضلًا عن المثنّى.

بعل

المثنّى، هنا، قبْلَ الجَمْع. ولعلّه بعضُ الجَمْع. لا جَمْع لدينا بلا مثنًّى

يمهِّده ويوطِّده. واحدٌ واثنان إلى ثلاثة فما فوْق، أنا والآخَر إلى غيْرنا، ذلك حسابُ وجودنا في بديهيّةِ حلقاته؛ ذلك، عِنْدَنا، دِينُ الوجود. الدِينُ، في بعضِ أحوالِ هيكلنا، تتردّى كلمتُه بالهويَّة التي تَحلّ محلَّه إنْ هو أحجمَ عن أنْ يكون المستقبلَ.

بك

الكلمة، فحْوى الدِين، هويَّتُنا.

بعل

لكنْ في بعضِ مَواقفِ الدِين ما يقيِّد حرِّيَّةَ الكلمة.

بك

كما أنّ في بعضِ مَواقفِ الدِين ما يؤيِّد حرِّيَّةَ الكلمة.

بعل

هكذا، بَيْنَ تقييد للحرِّيَّة وتأييد لها، مارسْنا، في حُرمةِ الكلمة، أَقدمَ حِرفةٍ في العالَم: الكلمة التي في البدء كانت، أو، على الأقلّ، مارسْنا بعضَ الكلمة التي في البدء كانت، ما ندري لمَ يُزعَم أنّ حِرفتنا، هذه، ليست أَقدمَ حِرفةٍ في العالَم. وربما كانت العلائق الروحيّة والجسديّة بَيْن الرأس والجنس، مِن خلالِ القضيب الذي يسمّى القلم، هي سبب ذاك الزعمِ المثنّى اسمُه مَعْنًى وتأويلًا.

بك

المثنّى هو أنتَ وأنا معًا. إنسانُنا ـ هيكلُنا في مَدَى كيانه ـ أَكبرُ مِن

أنْ يكفي ذاته بمفرَده. المفرَدُ، عِنْدَنا، ثمنٌ؛ والمعيّةُ قيْمةٌ؛ ولا قيمة للثمن بنفْسه أبدًا.

بعل

يدي بيدكِ إلى المستقبل، نَصْنعه، نحيا به، نكون فيه، نؤدِّيه.

بك

نؤدِّيه كما لا ينبغي أنْ نؤدِّي. يومئذ نؤدِّيه نقول الحقّ.

بعل

نقول الحقّ إذن نموت.

بك

ألا تموت الكلمات حين تقال؟

هوتْ فانفجرتْ طائرةٌ مروحيّة في حَرمِ الهيكل الذي كان في مخيِّلةِ بعلبك. هُدمَ الهيكل. تحطَّمتِ الطائرة. بين الحطام والأنقاض جثتا امرأة ورجل عُثرَ في جيبه على هذه المكتوبة:

انتحار

النهر

ألقى نفْسَه

في البحر.



للمؤلف

في منشورات الندوة اللبنانية ـ بيروت

- صوت الغائب ١٩٥٦
- وصية في كتاب ١٩٦٠
- من لا شيء ١٩٥٨
- أرضنا الجديدة ١٩٦٢
- أيام السماء ١٩٦٠
- مصير ١٩٦٥
- جعيتا ١٩٧٠

في منشورات محاضرات الندوة اللبنانية ـ بيروت

- **الزنوجة**، تأليف ليوبولد سيدار سنغور، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٦٦

في منشورات La Guilde du Livre ـ لوزان

- **لبنان**، ١٩٦٧

في المنشورات العربيّة ـ باريس

- **بدايات الخليقة**، تأليف رينه حبشي، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٦٨

في منشورات اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، اليونسكو ـ بيروت

- **الاعترافات**، تأليف جان جاك روسو، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٨٢

←

في منشورات دار الجديد - بيروت

- الهواجس الأقلية ١٩٩٣
- جمعيتا ١٩٩٧
- التراب الآخر ١٩٩٧
- زمن البراكين ١٩٩٧
- أسير الفراغ ١٩٩٧





الحرية بلا خبز جوع

الخبز بلا حرية مجاعة



